

اللؤلؤ المنتور

نوليا

توطئة

طويْتُ حلمي في ذاكرتي ورتَّبْتُ أفكارِي وعزمت وتوكَّلت
وأقدمت على العمل الصَّعب.

مسح الحُفْرِ وازالةُ النَّتوءات من عقولٍ متحجِّرةٍ وتحفيزُ النَّاشئةِ لاستعمال
العقل وسيلة تامَّة وكاملة لتحقيق الهدف.

أمَّا المهمة الأولى فهي مضنية وجدَّ متعبة، وأمَّا الثانية فهي
الطَّريقة المثلى كي نحقِّق رسالتنا في الحياة. للأولى أنا بكلِّ قواي
وكامل عتادي هدامة وللثانية بكلِّ محبتي وشغفي أنا البانية لمدائن
ودول.

حضارةٌ لا يمكن أن تكون دون التَّخلص من هشيم الأفكار البالية العتيقة
العفنة. وسوف نقيمها بعون الله وهمة الأجيال والإخلاص للبناء قولاً
وعملاً.

من الألف سننطلق وبالقلم نتسلَّح وبالإبداع نتحلى لا شيء يعيق
قدراتنا ولا جاهلاً يببطيء سيرنا.

وليس غروراً؛ فبعيداً عن الادِّعاء، هي ثقةٌ بالله وإيمانٌ بأنفسنا: نحن
الفخر والعزُّ والحاضر والازدهار، ونحن الصَّالحين الأخيار، نورٌ ونارٌ

تنير الدّروب وتحرق الأشرار. كفانا استهزاءً بإنسانيتنا ولنقم العزاء
للفساد والضّلال والجهالة والظلم.

شدّوا وثاقكم! المستقبل لكم؛ أبناء الخط المستقيم وأصحاب الحق
المبين وقادة الأرض المعمّرة المزروعة المغروسة المعروشة.

فلتكن البداية بتغيير مناهج التّعليم وأساليب التّربية و بعدها تكزّ
كلّ الإصلاحات ونصبح نموذجًا حيًّا للبلدان الرّاقية شكلاً ومضمونًا.

ولتسقط مقولة "الأرض للكافرين والنّجاح للفاستين". اشطبوها
من قاموس اللّغة وعولوا على اللبنة الطّيبة في قلب وعقل كلّ بنت وولد
من أبناء خير أمة. من ابتسامتهم المسروقة ومن طفولتهم المنهوبة
تكون الانطلاقة بالتّوازي، مع الحدائثة أصالة مرنة وحقيقيّة.

الإهداء

لاقيتُ استحسانًا حِسانٍ وكُرمْتُ بمقامٍ رفيعٍ، ولا تزال حروفي
محابرَ مداها بحورٌ، ولا تزال أقلامي من خشب الأرز أرصف السّطور
فتبتُّ كلماتٌ لا تشبهها كلمات؛ للحبِّ، للوطن، للأمِّ، للأب، للأخ،
لذوي القربى من صلات الدّم والروح، للجمال وللحياة...

فيا كلّ الحياة أرفدوني بغزير أفكارٍ حاملةٍ وخياليّةٍ وعديد كتبٍ
موسوعاتٍ روائيّةٍ ما بالقلب استطاعةً تغلب كلّ حجارة الأرض وحديدها
وتفتّت القاسي وتصهر الجماد.

الكلمة الطيبة، والابتسامة الجميلة، والنفس الأمّارة بالخير كلّها
سماتٌ تجعل من قلبي قلبًا ينبض للبناء والغرس، للعلم والازدهار،
والرّقيّ والسّمو والانطلاق.

اغزُ يا قلم أوراقِي الخريفيةً لونها بألوان الطّيف واجعلِ الأصفرَ
أقلّها ظهورًا؛ فإنّه لا ينفع مع الإقدام ركائزٌ من وهنٍ ولا أعمدة من وهمٍ.

تملك يا قلم أن تجعلَ المستحيلَ هيئًا والصَّعبَ مقبولًا، وأن
تضيءَ اللَّيالي الحالكات وأن تحوِّل زائرتي الغائكات إلى أميرات.

وما تلك إلا يميني أخطُّ بأناملها اللؤلؤية؛ فحروفها الماسية لا
تصدأ ولا تختفي ولا تندثر ولا تحتفي.

هي الرّوعة المنشودة والأمام المرْتجى والزّمن المتجدّد والأمكنة السّاحرة.
وحدتي زحامٌ كَلِماتٍ وهدوءٍ حفنةُ التّزاماتِ وسكوني غالبًا ما
يكون حركات: ترانيمٌ ذكرياتٍ ونغماتٌ حنينٍ وموسيقى للفرح الحقيقيّ؛
الفعل والفاعل والمفعول.
لي ولكَ وللجميع...

الفصل الأول



هو الصّباح الحامل معه مكائِدَ ومصيرًا أغبر وقرارًا أحمقًا
ودموعًا غزيرةً وحيرةً كبيرةً. لقد وَعَدَت سَكينة زوجها بالولد الذّكر وهو
وعدها بالطلاق إذا كان المولود أنثى والصّورة تبين أنّ الجنين أنثى
وأجلت الكارثة ريثما تهتدي إلى حيلة تنتشل عائلتها من الضّياح؛ ثلاث
بناتٍ والرّابعة في بطنها وأيام وتأتي... ماذا تفعل وماذا تنتظر!!؟
ويوم الولادة بسحر ساحرٍ جاء المولود ذكراً؛ ففرحت الأم والبنات
والوالد المتعجرف الجبار الجبان.

وبالمقابل كانت الطّفلة " لؤلؤة " بغرفة ثانية بين أيدي عائلتها التي
تفاجأت بقدموها، إذ صدّقوا رواية أمينة والطّبيبة والتي تقول إنّه في
لحظات الفحص تبين أنّ الوالدة حاملٌ وقيد الوضع وهكذا طُلي الأمر
على المحيطين بها وصارت "لؤلؤة" التي كانت في رحم سَكينة مع أمّها
أمينة. أمّا سامي، الذّكر المنتظر، فكان مقابل حفنة من المال لأمّ
عزباء رفضته قبل أن يولد.

هو القدر والقضاء! ويدّعي الجهلة أنّهم محرّكوه ويملكون القدرة
على فرض إرادتهم والإمعان في إيذاء إيمانهم وإنسانيتهم وعلاقتهم
بعاطفتهم وزعزعة استقرارهم النّفسي والعقلي.

لؤلؤة في كنف عائلةٍ ظالمةٍ لو لم تأتي إلى الحياة لطُردت المسكينة أمينة وصارت في الشارع بلا مالٍ أو منزلٍ أو عائلة. فالجدّ اشترط على ولده الإنجاب؛ غير أنّ زوجته وصلت إلى سن اليأس و كانت تكبره بسنوات. ولكن تشاء الأقدار أن تحصل المعجزة، بنظرهم، حيث إنّ الناس يتأقلمون مع رغباتهم ويصدقون ما تتسجّه آمالهم. وهكذا تحوّلت غير المرغوب بها في مكانٍ ما إلى المخلص الذي سينتشل المرأة المسكينة أمينة من الضياع.

ورحلت سكينة مع سامي إلى قرينتها...

وانقطعت الاتصالات بينها وبين أمينة.

وتراكمت الأحداث وصدّقت الأم البديلة أنّها حقيقية وعاشت الحدث وأضحت علاقتها بهذه الطفلة الغريبة علاقة رائعة بين الأمّ وبين ابنتها. فقدّمت كلّ الاهتمام والرعاية والحبّ للطفلة الجميلة والبريئة. في مدرسةٍ أجنبيّةٍ وفي منزلٍ فخمٍ ومع خدمٍ وسائقٍ وحارسٍ، عاشت لؤلؤة حياةً ثريةً؛ ثمّنها كذباً كبيرةً وأخذت مولودةً من على طاولة الولادة إلى غرفة أمينة.

- صباح الخير يا أمي.

- صباحك جميل مثلك.

- أعطني قبلة الصّباح.
- أمّي هل نسيت؟ اليوم أكمل العشر سنوات، هل ستكون لي حفلة كبيرة؟
- نعم يا حبيبتي، تستحقين وأكثر، مجتهدة وشاطرة.
- وما هي هديتي؟
- مفاجأة، غداً تعرفين.
- لا، أرجوك ماهي؟!
- لا تصرّي، غداً غداً. حضّري نفسك سننزل إلى السّوق لنبتاع أغراض الحفل.
- ومن ندعو؟
- عندما نرجع نكتب الأسماء، وتتصلين بمن تحبين: زميلاتك وزملائك، معلماتك وجيراننا.
- أمّي، لما إذا ليس لدي أخوة؟! ألا ليته لديّ، لكنك أسعد بنت!
- أو لست سعيدة الآن؟!
- بلى، يا أمّي ولكنّي وحيدة.
- لا بأس، اعتبريني أختك.
- ههههه! ولكن أنا أريد أختاً.

- لا أستطيع أن أكون أخاك...

ضحكتا معاً وخرجتا إلى السوق.

وبالمقابل كان هناك صبيٌّ ذكراً، الكلّ مجند لإرضائه ولتأمين حاجياته وللسهر على راحته إلا سكينه، الأمّ الثانية المسكينة، كانت تعيش لحظاتها بشعور يشبه حكم المؤبّد وتؤنّب ذاتها وتعيش في داخلها صراعاً مقيتاً: فابنتها التي يجب أن تكبر في أحضان عائلتها صارت مع أمّ ثانية وعائلة أخرى ولا تعلم عنها شيئاً.

والطفّل الذي من المفروض أنه ابنها، هي الوحيدة التي لم تهتم به بل وتعامله بجفافٍ وتعاقبه على ذنبٍ عظيمٍ اقترفته يداها. في حين أنّها كانت تُقنّع نفسها أنّها مضطّرة وتتساءل كيف أنّ والدة سامي فرطت به ودارت الخطأ بخطأ أكبر.

ورغم ذلك عاش سامي حاملاً سرّاً يجهله ودائماً ما تساءل لما إذا لا تحبه أمّه بنفس القدر الذي تحبّ به أخواته. والجواب يأتي دائماً أنّها مريضة وأنّها لا تستطع تحمّل شقاوته ومشاكساته.

لم يقبل إلا أن يقيم حفل ذكرى ميلاده العاشر في منزل رفيقه؛ فهناك حديقة وحيوانات وألعاب وبالفعل أوصله والده صباح هذا النّهار إلى ضواحي المدينة ليحتفل بنفسه مع رفاقه نزولاً عند رغبته.

- السّلام عليكم يا ولدي هل تريد شيئاً؟ سأعود مساءً لأفلك إلى المنزل ونكمل احتفالنا هناك.

- حاضر يا أبي، نلتقي مساءً.

وكان اللقاء مرسومًا بدقة: لؤلؤة مع أمّها تستلم هديتها "شهرزاد"، فرسٌ بيضاء جميلة، وسامي مع رفيقه في الإسطبل ليأخذا الأحصنة مع السّائيس ليمارسا الفروسية. يا لهذا القدر! لا يُسقط من حروفه الأسماء ولا الكلمات. التقيا، وفرح الولدان بالصّبية الحسنة وبقيت معهما طيلة النّهار بعد أن استأذنا والدتها، وبإصرارٍ من صاحب الاسطبل ووعد من السّائيس بالاهتمام بالأولاد جميعهم.

كان نهارًا موسعًا؛ لم يختصر مصير طفلين ولا إرادة رجلٍ وثلاثِ نسوةٍ، فقد كان شاملًا ملائمًا زاد من أواصر القربى المزيّفة وأحلّ في قلوب الصّغار دهشةً واستغرابًا للألفة وللودّ وللمحبة وللقبول حتّى ولكأنّهم يعلمون بما حاكت لهم عقولٌ جهنميّة وكيف قررت عنهم مصيرهم وهندست لهم أمكنتهم وأزمنتهم، وكيف غيرت حياتهم.

تواعد الأطفال على المجيء مرارًا إلى الاسطبل بعد أن ودّعوا بعضهم وفرقتهم الدّروب كما القدر وعاد كلّ واحدٍ إلى منزله. في وجدانه كلماتٌ لا يُتقن قراءتها؛ شعورٌ غامضٌ، إحساسٌ بسرٍ لغته صعبة

الفهم، وخفاياه عميقة المدى! عسى الأيام تحلّ رموزه ويعرف الاثنان
ما لا يجب أن يعرفاه ولو بالمشاعر حتى لا تتشوّه الإنسانيّة ولا تتأزّم
الحياة ولا يصبحان مشكّلةً عصبيةً يَضْعُبُ حلّها.

الفصل الثاني



لن تصحو الحسنة على سوادِ بل حزنٌ ممزوجٌ بقليلٍ من الدمع
وكثيرٍ من الرضى والتسليم! فلا يوجد بين يديها إلا دفترٌ بخطِّ والدتها،
ينطق بأشياءٍ عظيمةٍ ومبرراتٍ هزيلةٍ. فما حياتها إلا كذبةٌ مدبرةٌ اعتقدت
سكينةً وأمانةً أنهما بفعلتهما نجتا من مصيرٍ أسودٍ محتومٍ؛ ولن أزيد.
بعد العزاء، حملت لؤلؤة إرثها الشرعي، مذكرات والدتها،
وشرعت بقراءتها، إضافةً إلى إرث غير شرعيٍّ سوف تسخره لندواتها
ولمساعدة كلِّ من هو بحاجة من النساء والرجال والولدان. ولكن
بالمقدمة ستكون المساعدات للنسوة اللواتي لا يجدن حيلةً وانتكست
حياتهن بأفعالٍ ذكوريةٍ وجهلٍ متفشٍ وانعدامِ الثقة بالذات.
وسأترك للغالية أمي التي ربّنتي القلم لتقصّ عليّ حكاية لؤلؤة
التي أبت إلا أن ترجو حياةً كريمةً وأن تمحو عن كثيراتٍ نعمتها وتركز
على تصحيح مسارات البوصلة ولو بقليلٍ من تقبّلٍ وعظيمٍ جهدٍ.

مذكرات أم بديلة

هكذا عنونت أمانة دفتر مذكراتها وهذا ما شعر نيرانُ حماسة
لؤلؤة على تبيان أن الأم هي التي تربي وليست التي تنجب فقط؛
فكلاهما في العطاء سواسية.

عندما تقرئين يا صغيرتي الكبيرة كلماتي لن أكون معك كي
أصرخ وأدافع ولكن أمنيته الوحيدة ألا تتخذي أي موقف أو قرار قبل
التمعن بقراءة تلك المذكرات ولن أطلب من الله سوى أن تكوني، يا
حبيبتى، محامي دفاع عن صغائر ارتكبتها كي أرضي غروري وأن
تكوني في ذات الوقت القاضي ولكن إياك أن تكوني الجلاد! هو القدر
يا صغيرتي مكتوب وما نحن إلا الكلمات.

صغيرتي الغالية لم أخط مذكراتي فإنما هي إضاءات كي تبين
لك بعض ما خفي وأنا على ثقة تامة أنك بعقلك المتوقد وفطنتك الذكية
كنت تشعرين وتعرفين ولم يغم عليك إلا القليل وهذا ما سأحاول تبيانه
يا لؤلؤة حياتي.

كبرت في منزل والدي وتزوجت شقيقتي وبقيت مترددة في اتخاذ
قرار الارتباط إلى أن التقيته. وجدت فيه الأمان وكنت أكبره بعشر

سنواتٍ ولكن هو ليس من الرجال الذين تُعجَبُ بهم النساءُ لأتّه المدللُ
الغنيّ ابن الاسرة التّقليديّة التي تسير وفق منهاجٍ صارمٍ وبحسب رغبة
الجَدّ الكبير .

وعشت معهم عمري الذي كنت أحسبه جميلاً؛ إلى أن فُرض
علينا أن نأتي بالورث، ولا فرق عندهم إن كان ذكراً أو أنثى. المهم أن
يأتي الحفيد، ولم يكثر أحدٌ إن كنتُ قد قاربْتُ سن اليأس، أو إن كان
زوجي رجلاً عقيم، استغفرك ربي، فالمهم عندهم هو النّتيجة وألا ينقطع
إرث العائلة ويختفي اسمها من الوجود. فقد كان جدّه رجلاً شديداً، ذا
جبروتٍ عظيم، يفرض رأيه ورغباته على أهله وناسه ويجب أن يحقّقوا
له إرادته ولو كان الأمرُ مستحيلاً.

وعندما التقيتُ سكيّنة المسكيّنة، رأيتُ في طرحها الفرجَ ولم أكن
أتوقّع أنّ الظلمَ سوف يجعلها تشتري صبياً لترضي هي الأخرى زوجّها
القاسي الرّاغب بالذّكر. اتفقنا على أن تعطينا يومَ الولادة مولودتها ويكون
الفراق أبدياً حتى نتجنّب المشاكلَ وتعيشي بطمأنينة. و رغم أنّ الحياةَ
كانت ملكَ يمينك لّا أنك كنتِ تعيشينها بقلبي، فكان كلّ ما حولك يوحي
بأنّ هناك سرّاً ما في حياتك و استفساراً عن السّبب وراء كونك الحفيدةَ
الوحيدة لعائلةٍ ثريةٍ كبيرة.

وهكذا كنتِ يا حبيبتي، التور الذي أنارَ عتمةَ أيامي وأزاحَ العُمةَ
عن قلبي ومَلأتْ كياني وبالرغم من محاولاتِي زرعَ بعضًا من حسناتي
في نفسك البريئة الطاهرة إلا أنكِ كنتِ مميزةً بما طُبعتِ عليه من أشياء
ليستُ بأيدينا، هي مجبولة في دمك وفي أعماقِ وجدانك تتوارثينها عن
أمك وأبيك الحقيقيين.

يا لؤلؤتي، لا تحزني ولا تضعفي. أحسبك الفتاة الرشيدة القوية
التي ستعمل بمجهوداتها الجبارة على إنصافي وإنصافِ سكينه المسكينة
وأشبهنا وبكل ما أوتيت من علم وقوة وشخصية وسعة. أما أنا فإفاضتي
عن نفسي لا تُنصفك ولكن سوف أشعر حيث ما أكون بالارتياح
لمشاركتي معك همومي وشجوني.

عندما جئنا إلى البيت، أُقيمت لنا الاحتفالات والموائد وجاء
الناس من كل حذبٍ وصوبٍ ليشاركونا فرحتنا بك. وبعد ذلك بدأت
مسيرةً صعبةً؛ صارت التدخلات للاهتمام بك كثيرةً وكبيرةً والكل يدلو
دلوه ويصرُّ على رأيه وأنا الأم البديلة الضائعة بينهم. بقي الأمر على
هذه الحال الجنونية إلى أن طلبتُ من زوجي أن يقف ولو لمرة واحدة
ويتجرأ فيواجه ويطلب منهم إخلاء الدرب لي وله كي نتدبر أمرنا ونرتبك
على طريقتنا وتكبرين في منزلك بعيدًا عن فرحة ومرحة والداية والجاره

والعمّة والخالة. وفعلاً استطاع أن يُخرجنا من المنزل الكبير المليء بالضجيج والخالي من الحنان والعطف.

وعشنا سوياً معاً ولم يُطلُ أبوكِ رفقتنا؛ لقد رحلَ باكراً وهو مطمئنٌ على الإرثِ وعلى رضى الجدِّ الكبير. حاولتُ بكلِّ ثقافتى وعلمى ومحبتى أن أحتويكِ وأن أجعلكِ مميزةً بين أترابكِ وكنْتُ معكِ خطوةً خطوةً: فى مشيتكِ الأولى، وفى كلمتِكِ الأولى، وفى يومكِ الأول فى المدرسة، فى ترقّعكِ فى المراحل التعلیمیة، وحتى فى النشاطات الترفیھیة، كنتُ أستعيدُ طفولتى وفرحتى المسروقة برفقتكِ يا أجمل ما حصلَ يوماً فى عمري!

لا تستغربى فرابط التّربية ورابط الحبِّ أشد من أوامرِ قرابة الدّم ولو أنّ الأخيرة هى الغالبة.

كلّ ما فى نفسى من نقمةٍ على المجتمع وأعرافه شرحته لك؛ فالمجتمعُ ذاته الذى حَجَبَ المرأةَ هو اليوم يعرضُها كسلعةٍ جامدةٍ خاضعةٍ للتجارة، وهو ذاته الذى جعل من الرجل المستبد ومنها المتحررة حتى من العقل والقلب.

لا أعرفُ ماذا أقول ولكن يجب أن نصلَ إلى مجتمعٍ واعيٍّ وعلى يقينٍ أنّ المعضلةَ ليست بظلم المرأة ولا بانحلالها ولا بالمناداة بمساواتها

مع الرّجلِ، وهذا مستحيل! فهي لها من الميزات ما لا يمكن أن تكون للرجل والعكس صحيح.

فيا صغيرتي، يا لؤلؤتي الغالية الثّمينة، معك ومع دراستك العليا سوف توضحين لمن يملكون الرّغبة بالتّغيير إلى الأفضل وإعادة الأمور إلى نصابها و إزالة الغشاوة عن العيون. المرأة مكرّمة بذاتها والرجل هو من يكملها ويعززها وهي لا ولن تكون أمةً إلّا لخالقها. وهو لا ولن يكون سيّداً إلّا على نفسه ورجلاً على رأس عائلته. المنظومة كلّها في خطر إذا لم نضع الحجر الأساس لإصلاح المجتمع ولمحو السّلبات واستبدالها بإيجابيات، ستغمّ علينا لا محالة.

لؤلؤتي، حياتي عند والدي لم تكن سهلة؛ فعندما تكبر البنت في منزل والدها الجميع يهزأ بها كأنّها مجرّمة وهاربة من قوانينهم. حتّى الأقربون أنفسهم يمعنون الأذى بي فأنا قد قاربت على العنوسة وهربت مني حياتي، هكذا صنّفوني و ذنبي الوحيد هو أنّي كنت أهرب نحو العلم والقراءة، فيا لإجرامي!

بقيت أرتشف الكنوز المعرفيّة وأرتحل في بحار الكتب حتّى حملت في جوفي مكتبةً نفيسةً وموسوعات ثمينة. غلطتي الوحيدة الرّائعة هي أنّي قبلت المساومة مع أمك سكينه كي نحل عقدة حياتنا:

أنا المرأة التي فُرضَ عليها أن تَلِدَ وهي في سن اليأس. وهي المرأة التي فُرضَ عليها أن تضع مولودًا ذكرًا يكون أختًا لبناتٍ أربع. حبيبتي لا تبتسي هو قضاء رب العالمين ولو اعتقدنا جميعنا أننا حقّقنا رغباتنا. وعندما انتقلت إلى بيت عمّي كانت المصيبة! فالنفس يجب أن يكون محسوبًا وبقدرٍ، والخطوات والانفعالات يجب أن تُدرَس؛ ولكأنني والله في سجنٍ طوعيٍّ إلى أن جُنْتُ؛ فبدلت أيامي، وغيرت حياتي، وأزحت سواد نهاراتي أضئت ليالي المظلمة.

إذا ما جاهرت برأيي وقلتُ الصّواب يحاربونني ويعيرونني بأنّي البنت الكبيرة التي ضحكّت على ابنهم وأجبرته على الاقتران بها. والحقيقة، يا جميلتي، هو الذي أصرّ وألحّ: فتربّيتي لم تكن تسمح لي بالتمادي مع أحد ولكنّ جمالي وشخصيتي جذباه وجعله يصرّ على الارتباط بي وأنا لم أملك إلا الموافقة فما كنت أعيشه لا أحسدُ عليه. انتقلتُ من عذابٍ إلى آخر، ومن قهرٍ إلى أكبر حتّى استقرّيتُ معك ورَحَلَ عنا الجميع...

حينها بدأتُ أشعر بوجودي، بأهمية حياتي وبأشياء كانت في داخلي لم أجرو يوماً على إظهارها، ولكن القوة التي استمدّيتها منك يا مرّاتي ويا طيفي ويا امتدادي جعلتني أكثر قدرةً على المواجهة

والإصرار؛ فأنت ابنتي وحدي لست ابنتهم ولن تكوني! أنت ابنة الحزن
الذي صار فرحاً وابنة الجهل الذي بات يقيناً. أنت الشعاعات التي
ستتيرُ دروباً مظلمةً لكلّ أنثى بحالاتها المختلفة.

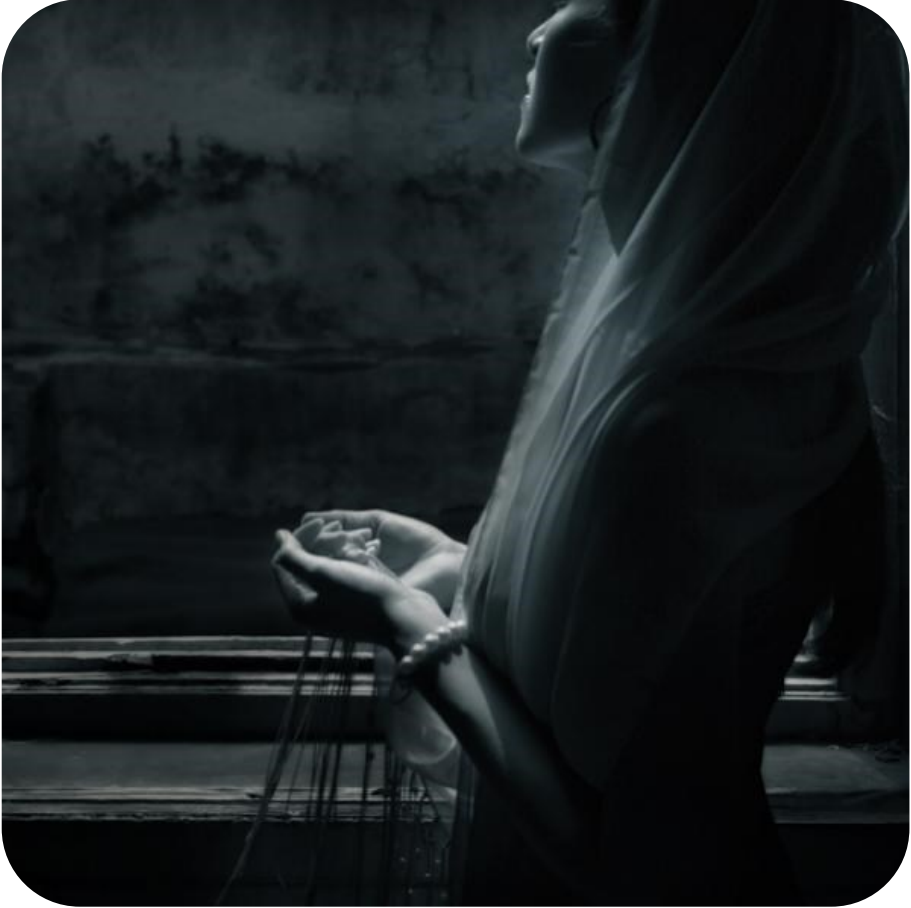
لا تبخلي يا أميرتي ويا لؤلؤتي بما منّ الله عليك من نباهةٍ
ونعمةٍ. أتحفيهم جميعاً بمكنوناتِ نفسكِ تستطيعين أن تبددي سوادَ
العقولِ وتزيحي الأثقالَ عن القلوبِ بالكلمةِ والعملِ وبالجرأةِ، ستجحين
حيث لن يتمكن الآخرون. اختصاصك وأطروحتكِ يجب أن يكونا مثلكِ
"لؤلؤة"، وأكاد أسمعك تهمسين: "حتى بعد موتك تتصحين!" لا يا
صغيرتي هي ليست نصيحة هي حلمٌ كبيرٌ مرَّ عيه الزمن ولم يتحقّق
وآن الأوان كي نبدأً باطلاق صرخاتِ الوعي كي يستفيق الغافل والنائم
والراضي بالعوصِ بأسنة الأعراف، تلك التي لم تترك لنا حيلةً ولا
وسيلةً، وجرّدتنا من قوانا وأحبّبت عزائنا وقدراتنا.

عتبي على نفسي أنّي لم أُنْه معك نجاحك وتقديركِ ولكن كوني
أنا وأنتِ وجميع نساءِ الأرضِ وكوني يا صغيرتي المحبة الرائعة
للإنسانِ بشكلٍ عامٍ؛ فبدعة التفريق لا تمتّ بصلّةٍ لا للأديانِ ولا
للإنسانيةِ ولا لأية رسالةٍ سماويةٍ. فليس معنى أنّ المرأة ضعيفةُ البنية

أن تكون بلا عقل، وليس معنى أن يكون الرجل صلب البنية حتى يمارس قوته ويعتف من يجب أن يكون المخلوق الرقيق الذي يعشق.

أنا واثقة بك وبقدرتك على تفجير قنبلة في وجوه الجميع؛ فكرة أن القمع والانحلال لا يمتان بصلة لا للرجال ولا للنساء وكلاهما له مميزات يجب ألا تكون نقاط ضعف أو نقاط قوة، يجب أن تكون الخطوة التي تتبعها خطوات لإعلاء كلمة نفسها بلفظها وبحقيقتها وليس حسب مزاجيتنا وشيطنة إرادتنا.

ليس الرجل كالمرأة، نعم. ليس الرجل كالمرأة ولكن ذاك الأمر لا يعطيه تصريحاً بتعنيفها ولا يعطيها تصريحاً بالخنوع! لا يوجد في القرآن سورة الرجال ولكن سورة النساء والتي يا حبيبتى استقيت منها الكلمات لمواجهة لا بد منها في شرح أطروحتك.



الفصل الثالث



على جداول الشمس، تكتب لؤلؤة مسيرتها وبأبجدية ذهبية صفراء وكلماتٍ من رحيقِ صَدَفِ البحارِ ومن كنوزِ عَقْلِ صقلتهُ الحياة. ولن يأتي الربيعُ إليّ، يا والدَةَ لم تضعني و لكن ربّتي وحملّنتني رسالةً عظيمةً عنوانها: المرأة التي تجمل الحياة وتحملي مرارة الآه والألم وتمحو الأحزانَ وتهدّم كلَّ بناءٍ متصدّعٍ وتحرق كلَّ رداءٍ ممزقٍ وبال مشوّش... المرأة التي ليس في قاموسها المطالبة بتحريرها وهي المصونة الحرّة، التقيّة الأبيّة والمرأة التي تؤمن أنه بمناداتها بالمساواة مع الرجل تبخس حقّها وهي المتفوّقة عليه وفي كلِّ مجال. والتي في يقين وجدانها تعرف أنها رفيقة آدم ومعه تكتملُ مسيرة الحياة؛ فكفى متاجرةً بها وبكيانها وحذف كراماتها وإقلاق راحتها. هي التي حباها الله بميزة لو تمعنا بها لسكتتِ الصّحفُ ولجفتِ المحابرُ وكسرتِ الأقلامُ؛ ألا وهي قوله تعالى ﴿وقري عيناً﴾ فهل تدركون معناها؟! أي نامي قريرة العين مطمئنةً واثقةً بأنّ كلَّ شيء، مهما بلغت صعوبته هو صغيرٌ وحله قريبٌ؛ فلا تبتئسي يا امرأة. فالحزنُ لا يليقُ بالنساء، هن للجمال وللأنوثة، وللإطمئنان وللإنتاج. نعم! فهي الولود الودود، الولود لا داعي لمناقشتها أو حتّى محاولة تفسيرها. في حين أنّ الودود فسنقفُ

١ مريم، آية ٢٦.

عندها كثيراً: الودود، من الودّ. وهي باللّغة المبادرة بإظهار الإيجاب بالتقرب عن تفاهمٍ وحبٍّ وألفةٍ. وبالمضمون هي أوسع من تفسيرها؛ فهي الفعل السامّي والذي تترتب عليه إحياءاتٌ إيجابيةٌ تجلي العلاقة وتجعلها متبادلةً بالابتسامِ والكلمة الطيبةِ والنظراتِ الثرثرةِ والحضور السامق.

لا يمكن أن تتكوّن علاقةٌ إلّا بالودّ ولا تستمر الحياة بدونه. وهو مرتبطٌ بالمرأة تحديداً وفيها وحدها مقوماته ومعها صفاته وتملك القدرة على اكتماله في الناس فيما بينهم.

هي المبادرة، نعم! وبلا وِجَلٍ ولا خَجَلٍ وكلاهما من إرث مجتمعا اللاجيد. ليس عيباً أن تتبسّم في وجه الأخلاءِ ولا يُنقَصُ من شرفها شيئاً إذا ما قدّمت الكلامَ الجميلَ واستبدلتِ العبوسَ والوجوهَ القاسيةَ بوجوهٍ رضيّةٍ تعكسُ طبيبتها ورغبتها في الحبّ وفي الودّ.

واو العطفِ مع دالِ البشائرِ تصنعُ المعجزاتِ قي زمنٍ خلا من كلّ الروحانيّاتِ وتحجّرت فيه حتّى الأفئدة. لا يلزمنّا جسداً امرأةً غاويةً ولا صوتَ مغنيةٍ ولا إغراءً فاتنةً جاهلةً؛ ولكننا نعوزُ، لنعاودَ رشداً أمتنا، إلى لغتنا العربيّةِ وإلى معرفةٍ معاني كلماتها. الودّ يا سادة، علاجٌ للأمراضِ النفسيةِ هو يدورُ الرّوايا المسنّنةِ ويمهّد الأفكار الصلدةِ ويزيلُ

العواطف الصّديده. هو ملصقُ بالمرأة وهو نصيحةٌ لكلّ من أرادَ إقامةَ علاقةٍ والزّواجِ والارتباطِ. ابحثوا عن الودود ولا تركّزوا على الشّعْر المستعار أو الموصول ولا على طلاء الوجه والأظافر فكلّ هذا يزول بمسحةٍ قطنٍ مبلّلةٍ ونظرةٍ ندمٍ لا يمكن أن تعيد الزّمنَ إلى الوراءِ ولو لثانيةٍ.

برحيلكِ والدتي خسرتُ حضوركِ ولكنّك ما زلتِ معي: في المحاضراتِ وفي المحافلِ العلميّةِ وفي المؤتمراتِ. وها أنا اليومُ أتهدأُ لاستلامِ جائزةٍ دُوليّةٍ عن حقوقِ الإنسانِ عن دراستي الشّاملةِ حول المرأةِ والرّجلِ والإرهابِ ثالثهما...

كم تمنيتُ لو كنتُ معكِ ساعةٍ رفعتكِ الأكفُ وأخذوكِ بعيداً عني. رفعتُ يدي المنهكةَ أنتظرُ ردكِ وأتمنى لو رفعتِ لي يدكِ كي أشعرَ بكِ، ولكنها الحقيقةُ الصّعبةُ: توفتِ مَنْ أنجبتني فكراً وثقافةً وتربيةً. رحلتُ مَنْ دَفَعَتْ ثمنَ خطأٍ مجتمعيّ ظالمٍ يدّعي أنه مثاليٌّ وأنه مُتَدَيِّنٌ وأنّ ما يقومُ به هو من الشّرع. ولكنها تقاليدٌ يلزمها الحرقُ وعاداتٌ من الضّروريّ أن تختفي؛ فلا ديناً يأمرُ بأن تُرمى غيرُ الولودِ في الشّارعِ لمصيرٍ أسودَ ولا آيةً تقولُ بأنّ مَنْ تَلَدَ أنثى تُعاملُ معاملةً

الرّانية، والعياذ بالله، تبّاً لهم، لقد غيروا المفاهيم ولعبوا بالقوانين وضربوا
بالجدارِ الشرائعِ كلّها.

يقولُ ربُّ العالمين في كتابه الكريم أيها الجهلُ، من الناسِ مَنْ
يتزوَّجُ ومنهم مَنْ يتبطلُ ومنهم مَنْ يُخلفُ ومنهم مَنْ هو عقيمٌ ومنهم من
تكونُ ذريتهُ إناثاً ومنهم ذكراً؛ فعلامٌ تعترضون على حكمِ ربِّ العالمين.
حبيبتي، يا من ولدتني من رحمِ معاناتها ومن عمقِ وجدانها. لا ذنبَ
لكِ وعندما حَزِنْتُ وبكَيْتُ ليس منكِ ولكن عليكِ وعلى سكينَةِ المسكينَةِ:
أمِّي التي لم أتعرفَ عليها ولن أراها ولا أريد. رغم علمي أنها ليست
مذنبة فكلّ النّمة على العقولِ المتحجّرة المتوارية خلف بضعِ كلماتٍ
من آيِ القرآنِ وأحاديثِ الرّسولِ عليه الصّلاة والسّلام. كأني بكِ أمامي
شُهيبينَ وتشرحينَ عن أمرِ الرّسولِ للمسلمِ بأن يتزوَّج الولودَ الودودَ وأن
يحظى بذاتِ الدّينِ، تلك الوصيّةُ التي يبدو أنها سقطت من مفهومهم
لقد جعلتني يا عزيزتي متمرّدةً على كلّ المجتمعِ الذي لغايةِ
اللّحظةِ يُمعنُ في إيذاءِ المرأةِ ويهينُها تارةً ويسجُنُها كأنها محكومةٌ
تقضي حياتها وتتقدّمُ عقوبتها كحكمٍ مؤبّدٍ وتاراتٍ أخرٍ يخرجونها من
أدميتها لتخلعَ سترها وتكشفَ وتحوّلَ إلى سلعةٍ دعائيّةٍ ومادةٍ إعلانيّةٍ.
أين تلك التي تهزُّ السريرَ بيمينها وتهزُّ العالمَ بيسارها؟ أين الأمّ المدرسةُ

التي إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق؟! نكاد نكون كلنا لقطاء
وأولاد... لا أحب أن أكتبها ولكنها الحقيقة.

عندما قدّمنا رضا الناس على رضا رب العالمين سقطنا في
المنحدرات وغرقنا في الآفات وغرقنا بالخطايا. لا زال صوتك يُشجيني
ويُريحني ويحفزني، عندما كنت تقرأين لي بصوتك الحنون تمهيداً لدراسة
الماجستير فحفظتها من رخامة صوتك: "اعتماد طرائق لتسهيل مهمات
الإنسان فيها من المبالغة إلى درجة وصولنا إلى حالة الخمول والكسل
والرتابة".

ولا زالت المذكرات من فرائضي اليومية وما زلت أتصفحها
وأفكر بكلماتك التي مهما وصفتها لا أفيها نبلاً ومكانتها، قد أستطيع
أن أنشرها يومياً على وسائل التواصل ليس للفضيحة ولا لهتك الأسرار
ولا لانتهاك الحرمات وإنما لمشاركة كل ذي قلب وفكر معاناة المرأة في
مجتمعنا العربي. ليس كما يحاولون إظهار المشكلة من خلال الدعوات
إلى التحرير والمساواة والتي كلها تصبُّ بمكانٍ معادٍ للأنوثة وللمرأة...
حقك عليّ يا غاليتي، أن أكتب مذكراتك يومياتٍ على صفحاتي وأناقش
بها مع أصدقائي علني أفيك قدر الإمكان جزءاً بسيطاً من الراحة التي
كنتِ تنشدين وقليلاً من البر الذي به لك أدين.

تتوالى الصدمات وتتساقط فوق رأسي المشاكل ولو حاولت
استيعاب الأمور، تبقى مشاركة الناس معك وتدخلهم في أبسط
خصوصياتك من أعظم ما عانيتُه. عيون الكثيرين تلمع، أُجالسهم ولو
على مَضَضٍ ولإرضاءِ الاجتماعياتِ والتقاليدِ والواجباتِ العائليَّة: هل
ارتبطتِ بالجامعة؟ وماذا ستجني من الشَّهاداتِ؟ يلزمك ولدٌ يحملك في
آخرتك... حتَّى وصلتُ لقناعةٍ مفادها أن مصاحبةَ الجمادِ خيرٌ من
مجالسةِ الألسنة.

وهكذا عشتُ أحلامي وركزتُ على أعمالي ونجحتُ في حياتي؛ باستثناء
لقاءِ الشريكِ أو كما يقولون نصفي الثاني. هو القدرُ ولكنهم لا يتقبلونه
. إلى أن صادفتُ رجلاً من الطبقة المخرمليَّة الآيلة للسقوط في كلِّ
ثانيةٍ مراتٍ عديدة ولم يبقَ منها إلا الصالوناتُ المعتمَّة والعقولُ
المتحرَّرة.

وهكذا انتقلتُ من سجنٍ إلى آخرٍ أشدَّ عذاباً وأكثرَ ظلمةً، حتَّى
اهتديتُ إلى فطنة النَّبِيِّ والاحتِيالِ على عائلي وزوجي وكلِّ من حولي
واعتقدتُ أنني وصلتُ إلى مبتغاي ومبتغاهم وارتضيتُ لذاتي العبورَ
على عاطفةٍ أم تكَلَّتْ ابنتها وهي حيَّةٌ تُرزقُ فقط لإشباعِ غرورِ رجلٍ
ظنَّ نفسهُ إلهاً وقرَّرَ أن على امرأته أن تلدَ ولداً...

هي تَبَنَّتْ الولدَ من أمِّ عِزْبَاءَ وأنا سرَقْتُ فرحةَ أمِّ مغلوبٍ على
قرارها...

فكنتُ معكِ مثلاً للأمِّ والابنةِ في كلِّ الأشياءِ ولكن كلَّ يومٍ
كانت تُنْعَضُ عليَّ عاطفتي ويوجعني كذلك ضميري لأنني لم أستطعِ
المجاهرةَ والصِّراخَ في وجهِ مجتمعٍ يزوِّرُ ويزيِّفُ ويسيرُ وراءَ الكذبِ
ويُصدِّقُ أنه مجتمعٌ إنسانيٌّ...

لستُ معترضةً على وجودكِ وإلا لما أقدمتُ على تربيتهِ وبقوةِ
وباحتضانٍ وبكلِّ الحبِّ ولكن اعتراضِي على اتجاهِ عقولِ لجهةٍ لا أجدُ
لها تسميةً سوى الجهلِ. وهذه هي كَلِمَاتِي الحَقِيقِيَّةُ وكما علّمتنا إياكِ
وأنا الحياةُ: فالصدِّقُ أقوى وإن كان مريراً.

حكايتنا لم تنتهي وستبقينِ الابنةَ الجميلةَ واللؤلؤةَ المكنونةَ والتي
سوفَ تشعُّ على اللآلئِ المنثورةِ علماً وثقافةً ومحبةً. لذلك ستتفاجئينِ
عندما تقرئينِ قصصًا لنساءٍ كثيراتٍ عانينِ وكنَّ مثلاً للمرأةِ القويةِ.
دون دروبِ ناريةٍ ولا وسائلٍ تبرزُ الغاياتِ، بجهدٍ وصبرٍ وصمودٍ
وتشغيلِ القلوبِ واليدينِ فَمَنْ ببناءِ عائلاتِهِنَّ وبلا حائطٍ ولا من يحزنون
ولا رجلٍ ولا ذكراً....

ومع الأسف...

كي يعلم الجميع أنّ الانتقال من الضّعف إلى القوة وتحويل
السلبية إلى إيجابية محصورٌ فقط بالمرأة؛ فهي وحدها من يستطيع أن
يهزّ العالمَ ومن دون يدين أيضاً...

من سارة إلى مريم، نزهات في ترهات ومتهات الدنيا حكايات
لا تُشبه سيرة ولا قصصاً متفرّدة بواقعتها وجميلةً بمغزاها.

الاعتصاب كان و مازال مستمراً. ورأينا الكمّ الهائل من
المغلوبات والمُعْتَصَبَاتِ إِلَّا أَنْ حَلَّ الْمُعْضَلَةُ وَالبَحْثُ عَنْ إِنْهَاءِ الْأَمْرِ
يَرْجِعُ إِلَى الْمَرْأَةِ نَفْسِهَا...

يعني الزّوجة الأمّ تتحمّل كاملَ المسؤولية ليس بدلاً من الجاني
ولكن لتقصيرها في تأهيلٍ وتعزيزٍ شخصية ابنتها وكمّ فهمها وإفهامها أنّ
الكبار يحقّ لهم كلّ شيءٍ، في حين أنّها ممنوعةٌ حتّى عن الدّفاع عن
نفسها...

سارة كريمةٌ من كريماتِ هذا المجتمعِ ارتبطتْ برجلٍ من غير
دينها وبمباركة أمّها
فحوّلت سارة عائلتها إلى عائلة تشبه العانسٍ بكليتها بأفعالها وأفراحها
واتراحها هي ردة فعل مبطنة أم انتفاضة بوجه مصارحتها مع
نفسها...

أُنجِبَتْ ابنةٌ وتلك الابنةُ اعتبرها الرجلُ الذَّكِيُّ ملكًا له وراحَ يَغْتَصِبُها،
إلى أن كَبُرَتْ الطفلةُ المسكينةُ وَعَرَفَتْ أَنَّهُ كان يَقتُلُ براءَتَها وما يقومُ
به ليسَ دلالًا ولا غنجا بل قتلٌ عن سابقِ تصوّرٍ وإصرارٍ لعائلةٍ بُنِيَتْ
على ضدين لا يلتقيان....

وما ذنبُ المسكينةِ التي هي بمثابةِ حبلٍ يشدهُ والذُّها الأخرقُ
وتشدهُ والذُّها البلهاءُ: واحدٌ لجهةِ الغريزةِ وقِدَحِ الخمرِ وواحدةٌ لجهةِ
الجودِ والانتقامِ...

الصَّغيرةُ صارتَ صبيةً جميلةً متفوقةً وعبقريَّةً فوضعتَ حدًّا
لكليهما ونبذتُهما من حياتِها وأعلَّنتُ للملأِ أنَّها ملحدةٌ ولا يعنيهَا أن تُنشأَ
عائلةً وهي تسعى للمساكنةِ مع مَنْ ترتضيه لها صاحبًا وصديقًا! وكلَّ
هذا لا يعلمُه المجتمعُ؛ فهي فقط معروفةٌ بإلحادِها وبتخطيها الخطوطَ
الحمراءَ وبأنَّها تمارسُ الحريةَ بإفراطٍ وتروِّجُ لها من خلالِ برنامجِها
التلفزيونيِّ الذي ينتقدهُ الألوْفُ ويشاهدهُ الملايينَ...

في حلقة الترويج للواط وإظهاره كحالة شخصية ونموذج للحرية
الفردية ظَهَرَتْ بحلة تُشْبِهُ الشَّيْطَانَ فارتدَّت نِصْفَ ثوبٍ للذَّكُورِ ونِصْفَهُ
الأخر للنساء...

وحاولت المسكينة أن تكون قويةً، فتكلَّمتُ عن شواهد وأمثلة وبمشاركة
عالميِّين ومحليِّين. غير أنها وَقَعَتْ في ضعفٍ مَكِينٍ حينَ سألها مُشَاهِدٌ
إلى أيِّ من والديك تميلين؛ فانهارت المسكينة وتساقطت عنها كلُّ
الأوراقِ المزيَّفةِ وارتعدت من ضعفها وفصحت سريرةَ عائلتها. فتحدتت
عن والدها الحيوانِ البشريِّ الذي اغتصبها وعن والدتها الخانعةِ والتي
لن تدافعَ عنها يوماً ... فالى أيِّ ميلةٍ تريدني أن أميلَ؟! لجهةِ آيةِ ديانةٍ
وأنا الجامعةُ لديانتينِ عظيمتينِ في تكويني الجينيِّ وفي ثقافتي العليَّةِ!؟

ولقد كانت جريئةً بحقٍّ، لدرجةِ أنها تحوّلت إلى إنسانةٍ أشهرت
توبتها وارتبطتُ برجلٍ يصونها وعرفتُ أنها كانت ضحيةَ تقاليدِ مجتمعٍ
باليَّةِ وأعرافِ رثَّةٍ لا تُشْبِهُ الدِّينَ ولا تَمُتُ للإنسانيَّةِ بصلَّةٍ...

الإعلاميةُ القديرةُ لم تستقلْ من عملها بل تابعتْ وازدادتْ نسبةُ
المشاهدينَ لبرنامجها ولا أعلمُ كيف تنقلُ الألوانُ فجأةً بنكزةٍ أو بشهابٍ

أو بقدرِ العليم. المتمردةُ آمَنَتْ والضَّالَّةُ عَادَتْ إلى أَحْضَانِ الحَقِيقَةِ،
امرأةٌ تَعْلُنُ مرارًا وتكرارًا أَنَّها مَكْرَمَةٌ وَأَنَّها لَوْلَوْ مَكْنُونٌ وبِفَضْلِ الأَيَادِي
السُّوداءِ صَارَ مَنْثورًا هُنا وَهناكَ وفي أَمْكِنَةٍ لا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيها وَلا
يَلِيقُ بِالمَجْوَهراتِ أَنْ تَسْكُنَ فِيه.

والذُّها فِي ماوَى ووالدُها مَسْتَمِرَّةٌ فِي حَياتِها: امرأَةٌ ارْتَدَّتْ عَن
دِينِها وَتَعِيشُ مَأْسائِها مَعَ نَفْسِها وَتَحْتَ تَمثالِ السَّيِّدَةِ العِذراءِ تَبْكِي
وَتَتَحَبُّ عَلى حَاليها وَعَلى ما تَدَّعِيهِ حَالةُ ابْنَتِها المِطْرَافَةُ الَّتِي، بِحَسَبِ
اعْتِقادِها، أَضَحَّتْ دَعاشِيَّةً لِأَنَّها ارْتَدَّتْ الحِجابَ وارْتَبَطَتْ بِرَجُلٍ مُسَلِمٍ
مِلتِحٍ.

يُضْحِكُ الزَّمانُ وَيَهْزَأُ بِنا القَدْرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بَدَلًا أَنْ نُصارِحَ
أَنفِسانا نَبْتَعُدُ وَنَهاجِمُ الصِّدقَ وَالْحَقِيقَةَ وَنَسِيرُ وَراءَ ما رَسَمَوا لَنا راضِيينَ
بِالقِساوَةِ والبِشاعَةِ والسُّوداويَّةِ مَصارِيحًا مَحْتَمًّا لَنا كَمِثالِ سارَةِ تَمامًا..."
يُصِحُّ القَوْلُ هُنا مَن يَرِ مَصابِبَ غَيرِهِ تَهُنُّ عَليه مَصابِبُهُ!.

كُنْتُ يَا لَوْلَايَ أَتَوَارَى عَنْ أَنْظَارِهِمْ جَمِيعًا كَيْ أُرْتَاخَ بَيْنَ دَفْتِي
دَفْتَرِي وَمَعَ قَلَمِي: أَنْاقِشُ، وَأَحْلُلُ، أَرَاقِبُ، وَأُعَلِّقُ، وَكَانَ بُوْدِي فَقَطْ أَنْ
أُحَاوِرَكَ وَلَكِنَّكَ كُنْتِ صَغِيرَةً جَدًّا وَقَلْبُكَ الْكَبِيرِ لَا يَتَسَعُ إِلَّا لِلْمَحَبَةِ. فَلَنْ
تَخْدِشَ بِيَاضَهُ قِصَصٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ وَلَكِنْ أَعُوْلُ عَلَى رِجَاحَةِ فِكْرِكَ
عِنْدَمَا تَمْرِيْنَ عَلَى تِلْكَ الْقِصَصِ كَيْ تَزِيدِي قُوَّةً وَنَبَاهَةً وَرِجَاحَةً وَإِنْسَانِيَّةً
وَدَعْمًا لِلْمَرَأَةِ بِشَكْلِ صَحِيحٍ وَلَيْسَ بِإِعْتِبَارِهَا سَلْعَةً أَوْ مَادَّةً أَوْ مَعْبَرًا أَوْ
جَمَادًا؛ بَلْ هِيَ مَخْلُوقٌ رَفَعَ قَدْرَهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ فَلِمَاذَا تُدَنِّسُوا طَهَارَتَهُ؟!...

هِيَ وَصِيَّةُ رَسُولِنَا الْكَرِيمِ وَلِهَا الْجَنَّةُ كَمَا بَشَّرْنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ، وَإِذَا مَا قَرَأْنَا الْقُرْآنَ لِحَظْنًا أَنَّهُ يَشَدُّ عَلَى عِبَارَةٍ: "لَا تَحْزَنِي
وَقَرِّي عَيْنًا"؛ سُبْحَانَ اللهِ وَلَكِنَّ الْعِبَادَ لَا يُوْقِنُونَ. ابْنَةُ سَارَةَ انْتَشَلَتْهَا قَدْرَةُ
الهِ مِنْ الْحَضِيضِ وَتَابَعَتْ مَسِيرَتَهَا تَكْفُرٌ عَنِ الْمَفَاهِيمِ الْمُرْمَاةِ لَنَا مِنْ
مَجْتَمَعَاتِ غَرْبِيَّةٍ لَا تُشْبِهُنَا.

كَمَا أَنَّهَا لُقِّبَتْ "بِالْمَرَأَةِ ذَاتِ الْخَمَارِ" عِنْدَمَا قَرَّرَتْ أَنْ تَرْتَدِي
الْخَمَارَ وَتَكُونُ أُمَّ صَالِحَةٍ وَتَرْبِي أَوْلَادَهَا تَرْبِيَّةً صَالِحَةً حَتَّى يُوَاجِهُوا
الْفَسَادَ الْمُسْتَشْرِيَّ وَيَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى تَغْيِيرِ الْمَسَارَاتِ الْخَاطِئَةِ
وَتَصْحِيحِ الْمَفَاهِيمِ السَّائِدَةِ...

اليوم تناقَلت المحطاتُ ووسائلُ التّواصلِ الاجتماعيّ خبرًا عن
التي خَلَعَتْ حِجابها على الهواءِ مباشرةً، وتحدّثتْ عائلتها وشرحتْ كيف
أنّها خرّجتْ من الشّرنقة، ووجدتْ نَفْسها الضّائعة. أعلّمُ أنّك تبسمين،
يا لؤلؤتي لأنّكِ لستِ محجّبةٌ ولكنّ القصةَ ليست في مَنْ هي محجّبةٌ
ومن لم تتحجّب؛ المشكلةُ في كيف أنّهم يسوّقون لمشاعرنا الدّينيّة
باستخفافِ الله فرضَ الحجابِ على المؤمناتِ حتّى لا يُؤدّين. وكم من
الأذى تتعرضُ له بنائنا اليومَ في المنازلِ وفي الشّوارعِ وفي كلّ مكانٍ
يَطأُهُ.

فاطمة يا ليتك تبدلين اسمك أيضًا، كما بدلوا لكِ مظهرك
وساعدوكِ على أداءِ مشهَدٍ تمثيليّ قبضتِ ثمنه، أي أنّك بعّتِ قضيةَ
الحجابِ بمئتي دولارٍ يا غانية.

نعم! كان مشهَدًا تمثيليًا وباعترافِ صاحبةِ العلاقة، كم من ساذجةٍ
خضعتْ لقانونِ المالِ واستُغلتْ بحاجتها كي يروّجوا ويسيئوا للإسلامِ
وللمسلمين وبأيدينا. فكما أنّك حرّةٌ بالتّعري، هي أيضًا حرّةٌ بارتداءِ
الحجابِ سواءً قبلتِ أو رفضتِ. هزلتِ. نعم أنا ارتديتُ الحجابَ عند

موتي فقط وبكفني ولكن لست مع كل ما يَشُنُّوه علينا ولن أقولَ نادمةً
لا أعلمُ اللهَ أرحمُ الرَّاحمينَ .

نصيحةٌ لكلِّ امرأةٍ مسلمةٍ، قومي بواجباتِك التَّربويَّة والإسلاميَّة
واغْرُسي في عقولِ النَّاشئةِ الفضائلَ؛ لقد حَسِرْنَا أنفسنا عندما امتلأتْ
نفوسُ أولادِنَا برذائلِ الآخرين ومفاسدِهِم. نحن مع الحشمةِ، نعم! ولن
نكونَ يوماً مع الرَّذيلةِ. عيونِ الذِّكورِ عَمَّتْهَا السَّيقانُ والصِّدورُ فصاروا
وحوشاً بشريَّةً مُلتهمَةً.

عذرا يا ابنتي كُنْتُ قاسيةً ولكنَّ الأجواءَ حولنا تدعوننا لنجابه
الحربَ الكبيرةَ بكلِّ ما أوتينا من قوَّة. إذا ما ابتغينا مجتمعاً قوياً متقبلاً
سدًّا منيعاً في وجهِ الفتنةِ وجبلاً عاليًا أمامِ الأمواجِ المُرسلةِ لنا لإضعافِنَا
ولمحوِنَا عن وجهِ الأرضِ.

الفصل الرَّابِع



كان لي مع الأيام مواقف غالبيتها قاسيةً وخاصةً عندما استلمتُ
من المختبرِ ظرفًا نتيجةً تطابقِ الجينِ مع والدي الذي نَكَرني لأنني
أنثى ووالدتي التي أهدتني مجانًا من أجلِ إرضاءِ غرورِ رجلٍ أقلَّ ما
يُقالُ فيه جاحدٌ بنعمِ الله.

لقد حملته كَأني أملكُ شهادةً قوَّةً تجعلني أقفُ وأصْرُخُ بأعلى
الصَّوتِ: "أنا الوليدةُ التي رميتموها تبغي الرِّجوعَ إلى كَنَفِكُمْ بعد عشرين
عامًا..."

لقد تَرَكتِ لي الخيارَ في البحثِ عن أهلي أو طيِّ صفحةِ
الماضي قيدَ الكتمانِ. وصدقًا ليس لنقصٍ في نفسي ولا حاجةٍ لي في
حمايةٍ أو كُنْيَةٍ ولكن اتخذتُ قراري لأجلِ أن أُكْمِلَ مسيرةَ عمري حقيقيَّةً
وليس عنصرًا مُلَحَقًا بعائلةٍ أكرمتني ووالدةٍ ربّنتي وعلمتني ووجهتني
للبرِّ ودرّبتني على المحبةِ، مشكورةً رَحِمَكِ اللهُ يا أحبُّ إنسانةٍ على
قلبي.

حتّى وإن اجتمعتُ مع والدي سأخبرُها كم أحبُّك وكم أنا أفتقدُك
وماذا تَرَكتِ لي من ثروةٍ ماديَّةٍ وفكريَّةٍ وراحةٍ نفسيَّةٍ جعلتني أواجهُ العالمَ
وحدي.

طَرَفْتُ بَابَ الْبَيْتِ، كَانَ الْجَمِيعُ بَانْتِظَارِ النَّتِيجَةِ وَعَلَى وُجُوهِهِمْ
عَلَامَاتُ الذَّهُولِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقْرَأَ مَا يَعْتَلِجُ فِي دَاخِلِهِمْ! هَل
يَنْتَظِرُونَ ابْنَتَهُمَا أَمْ يَحْضُرُونَ لَوَاقِعَةَ رَفْضِهَا وَطَرْدِهَا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ مِنْ
حَيَاتِهِمْ؟

العائلةُ ببناتها الثلاثِ والأخِ المُشْتَرَى يَقفونَ مشدوهينَ حائرينَ، هاهي
الشَّقِيقَةُ الصَّغْرَى معهم وفي يَدِهَا الخَبْرُ اليَقِينُ. وقد أَكَّدَ طَبِيبُ العَائِلَةِ
مَا ذُيِّلَ فِي آخِرِ التَّقْرِيرِ: "نعم الجينُ مطابقٌ ممَّا يعني أَنهَا ابنتكم!"...

لَنْ أَثْبِتَ بُؤُوتِي وَلَكِنْ قَدْ أَثْبِتُ أُبُوتَكُمْ. مِنْ نَاحِيَّتِي لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيَّ بِعَزِيزَةٍ اِحْتَوَيْتَنِي بِكَلِيَّتِي، بَعْنَادِي وَغُرُورِي، وَدَرَّبْتَنِي عَلَى الْوَقُوفِ
فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ مَوْقِفَ الْقَوِيِّ الثَّابِتِ. لِذَلِكَ سَأَقْبَلُ جَبِينَكَ يَا أَبِي
وَيَدِيكَ يَا أُمِّي وَوَجَنَاتِكُنَّ أَخَوَاتِي وَأَسْلَمَ عَلَى أُخِي.

لَا تَعْنِينِي هُوِيَّتِي وَلَا أَرْجُو مَالَكُمْ وَلَكِنْ هَدَفِي الْحَصُولَ عَلَى
مَحَبَّتِكُمْ، فَهَلْ تَبْخُلُونَ بِهَا عَلَيَّ أَمْ أَنْ اللَّحْظَاتِ الْحَالِيَةَ سَتَعَوِّضُ عَلَيَّ
الْأَعْوَامَ الْخَالِيَةَ؟ عَانَقُوهَا، وَقَبِّلُوهَا وَاحْتَضِنُوهَا وَلَكِنْ لَمْ تَقْبَلِ الْعَيْشَ
مَعَهُمْ، طَلَبْتَ مَهَلَةً لِاسْتِرْجَاعِ أَنْفَاسِهَا؛ فَقَدْ أَتَعَبْتَهَا الْحَقِيقَةَ وَالسَّعْيَ إِلَيْهَا
وَالْوَصُولَ إِلَى الْوَالِدِيهَا.

غادرتهم ورَكَنتُ إلى قبرِ والدتيها، وَصَعْتُ عليه ورودَ بيضاء،
وَقَرَأْتُ لها الفاتحةَ وَأَسْرَتُ إليها بالوجعِ الجميلِ الَّذِي تَكَبَّدَتْهُ. وَرَجَعْتُ
إلى دارها تَقَلُّبُ ذكرياتها كأنَّها شريطٌ بحجمِ البشريةِ وفيه حكايةٌ بلا
حكمةٍ ولا نهايةٍ.

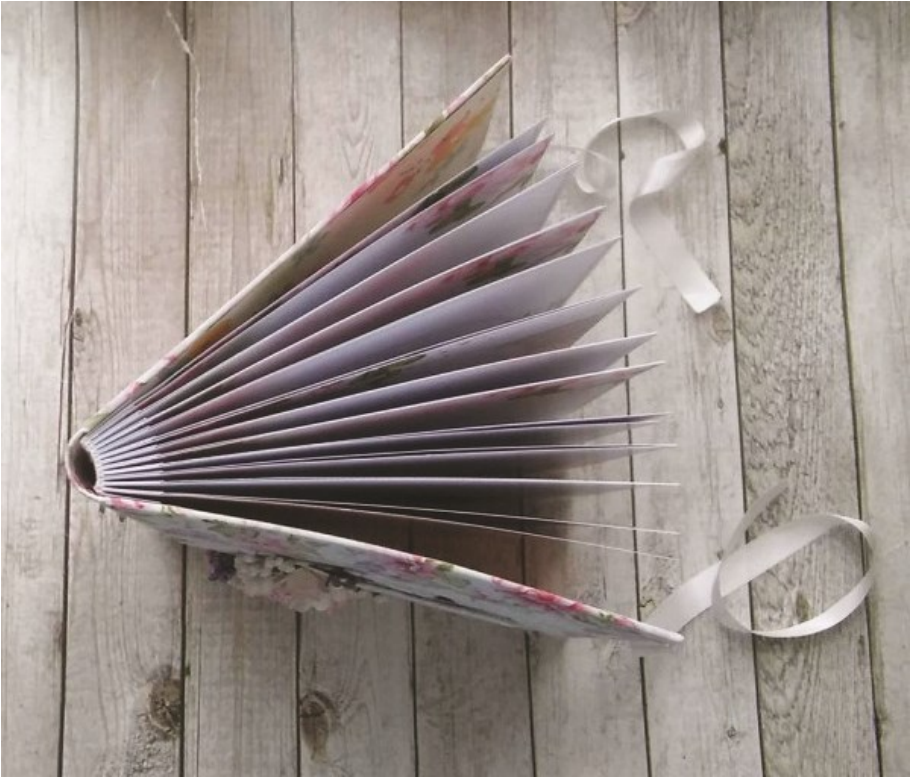
ربما يتخيَّلُ للبعضِ أنِّي سَأَنخرطُ في حياةٍ لا تُشْبهُ تربيَّتي ولا
تَمَّتْ إِلَيَّ إِلَّا بصلَةِ الدَمِّ والقِرابَةِ؛ فما في الوجدانِ ثورَةٌ على كلِّ ما جَعَلَ
الآباءَ يُرَخِّصونَ أبنائَهُم وَيُصَدِّقونَ أَنَّ أفعالَهُم حلالٌ وما ارتكَبوه يصبُّ
في مَصَلَحَتِهِم، سامَحَهُم اللهُ، ولكن، للحقيقةِ، أَقولُ، وَفوقَ قِناعتي: "
المحاكمةُ يجبُ أَنْ تَطالَ رموزَ المجتمعِ من رجالِ دينٍ وعلماءَ، أولئك
الَّذينَ تَخَلَّوْا عن واجباتِهِم وتَرَكوْا للسَّحرِ وللتقاليدِ السَّيِّئِ كَي يَعيثوا
بالعبادِ شرًّا وفسادًا.

أَحَبَّبْتُهُم قَبْلَ أَنْ أراهُم وَأَحَبَّبْتُهُم اليَوْمَ أَكثَرَ؛ فَعِظِي تَحَوَّلَ إلى
شِدَّةٍ في العاطفةِ عندما رَأَيْتُ انكسارَ الوالدينِ ودموعَهُم المتحجِّرةَ
وغصاتِ النَّدَمِ تَفعُلُ فَعَلاتِها مع كلِّ كَلِمَةٍ تَرحيبٍ وطلبِ الصَّفحِ
والمسامحةِ.

لستُ أنا مَنْ يَنْتَقِمُ وَيُحَاسِبُ وَلَكِنْ أَيْضًا لَنْ أُعَيَّرَ بِوَصْلَةِ حَيَاتِي. تَكْفِينِي
اتِّجَاهَاتِي وَسَأَتَقَبَّلُ قُدْرِي وَأَرْضِي نَفْسِي عَنْ تَأْدِيَةِ الرِّسَالَاتِ الَّتِي
حَمَلْتَنِي إِيَّهَا حَبِيبَتِي الرَّاحِلَةُ الْبَاقِيَةُ.

سَأَعِيشُ وَحِيدَةً فِي مَنْزِلِنَا وَسَأُصَلُّ رَحْمِي الَّذِي قُطِعَ عَمْدًا قَبْلَ
أَنْ أَرَى نَوْرَ هَذَا الْعَالَمِ الْخَافِتِ الْحَارِقِ. وَسَأُؤَدُّ وَأَحَاوِلُ جَاهِدَةً نَسِيانَ
الْمَاضِي مِنْ نَاحِيَتِهِمْ فَمَاضِيَّ مَعَكَ كَانِ جَمِيلًا حَقًّا. كُنَّا ثُنَائِيًّا ضَعِيفًا؛
فَصَرْنَا رَوْحًا وَاحِدَةً تُطْفَأُ لُهُبَ الشَّرِّ وَتُنِيرُ سُبُلَ الرِّشَادِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

الفصل الخامس



- صباح الخير.
- أهلاً لؤلؤتنا.
- ما بالك؟ ملامح حزينه وعينان رقاقتان؟
- وعكة بسيطة، لا تبال.
- اشتقنا إليك.
- ها أنا هنا، جئتُ لأُمضيَ نهاري معكم.
- على الرّحبِ والسّعة.
- لقد حَصَّرتِ والدتكِ الأطايبَ وأرسلتِ أخاكِ ليشتريَ المزيدَ.
- طعامنا لذيذٌ، من يديّ ستِ الحبايبِ ويصبحُ أذً مع جمعيتنا.
- تعالِي لأُريكِ فساتينَ جديدَةً تَبَضَّعْتُها من النَّتِ وسراويلَ
- وقُمُصانَ. لقد دَفَعْتُ راتبي كُلِّه وأكَلْتُ نصيبي من الوَعْظِ
- والتَّوْبِيخِ من الوالدةِ والأخواتِ.
- ملبوسِ العافيةِ، " حلوينِ وعِ الموضةِ ولابقيلكِ".
- حرامٌ ما تفعله تلكِ المبدّرة، خزانَتُها مليئةٌ بالألبسةِ ولكنّه
- الهوسُ. (قالت شقيقتُها الكبرى).
- أمّا الأختِ الصغيرةِ قالت لها: " هل تُعيرينني منها إذا ما دُعيتِ
- للاحتفالِ عندِ رفيقاتنا؟"

ضَحِكْتَ لَوْلَوْهُ وَاتَّقَعْتَ مَعَهُمَا عَلَى يَوْمٍ مَحْدَدٍ لِلنُّزُولِ إِلَى السُّوقِ
لِلتَّبَضُّعِ كَهَدِيَّةٍ لِهَمَا عَلَى نَجَاحِهِمَا فِي الْجَامِعَةِ.

- الْكِبْرَى تَرَكْنَهُمَا وَهِيَ تُثَرِّثُ: " يَا لَكُنَّ مِنْ مَجْنُونَاتٍ لَا تُرَاعِينَ
الْأَوْضَاعَ وَلَا تَتَّعُرْنَ مَعَ النَّاسِ .

- أُمِّي، مَاذَا أَحْضَرُ؟ بِمِ أَسَاعِدُكَ؟

- ابْنِي مَعَ أُخْوَاتِكَ . أَنَا أَنْهَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ .

- تَعَالِي لِنَتَّأَوَلَ الشَّيْءَ وَنَتَحَدَّثَ وَنُشَاهِدَ الْمَسْلَسَلَ، دَقَائِقَ وَيَبْدَأُ...

لَمْ أَشْعُرْ يَوْمًا بِلَذَّةِ الطَّعَامِ مَعَ الْأَحْبَاءِ؛ كُنْتُ أَتَّأَوَلُهُ سَرِيعًا وَهَنَّاكَ

لَمْ نَجْتَمِعْ حَوْلَ الْمَائِدَةِ إِلَّا فِي الْمُنَاسَبَاتِ وَالْأَعْيَادِ .

- الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَكَلْتُ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ . هَلْ تَتَّأَوَلَ الْوَالِدَ غَدَاءَهُ؟

- كَلَّا يَا ابْنَتِي، لَمْ يَرْضَ بِرِيدِكَ أَنْتِ أَنْ تَشَارِكِيهِ طَعَامَهُ .

حَمَلْتُ الصَّيْنِيَّةَ وَابْتَسَمْتُ وَصَعَدْتُ إِلَى غُرْفَةِ الْوَالِدِ . كَانَ حَدِيثًا

بِالنُّظَرَاتِ وَفِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعَنْبِ وَالْمَلَامَةِ وَالْحَبِّ وَالْحَاجَةِ وَالْإِعْجَابِ .

تَتَّأَوَلَ طَعَامَهُ وَاسْتَرْسَلْتُ بِالْكَلامِ عَنْ أَيَّامِي الْمَاضِيَةِ وَعَنْ مُرَبِّيَّتِي

الْفَاضِلَةَ وَاخْتِصَاصِي وَتَفَوُّقِي وَانْتِاجَاتِي الْأَكَادِيمِيَّةَ حَتَّى غَفَا كَالطِّفْلِ

الشَّارِدِ الْحَزِينِ، مَطْمَئِنُّ الْبَالِ لِحِكَايَةِ مَا قَبْلَ النَّوْمِ .

نَزَلْتُ لِأَكْمَلِ مَسِيرَةٍ يَوْمِي، أَسْتَمِعُ إِلَى مَشَاغِبَاتِ الشَّابِّ الْمُدَلِّلِ مَعَ
أَخَوَاتِهِ الْبَنَاتِ. هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي لَا يُرْفَضُ لَهُ طَلْبٌ وَتَتَقَدُّ أَمْرُهُ وَلَوْ
كَانَ الْجَمِيعُ أَكْبَرَ سِنًا مِنْهُ."

طَبْعًا أَنَا لَمْ يَتَجَرَّأُ عَلَى اعْتِبَارِي مِنْ ضِمْنِ خَادِمَاتِهِ وَلَكِنَّهُ بَدَأَ يَغَارُ
مِنْ حَسَنِ مَعَامَلَتِي وَدَلَالِ الْأَهْلِ لِي.

وَنَاقَشْتُهُ وَبَيَّنْتُ لَهُ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى الْمَطْبَخِ وَيَأْتِي
بِإِبْرِيْقِ الْمَاءِ بِنَفْسِهِ لِيَشْرَبَ أَوْ بِصَحْنِ الْفَاكِهَةِ لَوْحَدِهِ؛ فَمَنْ يَخْذُمُ نَفْسَهُ
مَلَكًا يَكُنُّ. وَهَكَذَا بَعْدَ جُهْدٍ وَبَاعٍ طَوِيلٍ أَقْنَعَتِ السَّيِّدُ عَلَى مَضْضٍ.

وَاحْتَارَتِ الْحَجَّةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ وَاسْتَأْسَدَتِ الْفَتِيَاثُ وَنَفَسْنَ رِيشَاتِهِنَّ
كَالطَّاوُوسِ الْجَمِيلِ الْمَرْهُوِّ بِحُضُورِهِ وَجَمَالِهِ وَسِحْرِهِ، وَدَعَتِ الْجَمْعَ
وَطَالَبُونِي بِتَكَرُّرِ الزِّيَارَةِ وَتَعَاهُدُنَا عَلَى التَّوَاصِلِ وَاتَّفَقْتُ مَعَ شَقِيقَاتِي
لِلنَّزُولِ إِلَى "الْمَوْل" لِلتَّسَوُّقِ الْجُمُعَةِ الْقَادِمَةِ.

وَقَفَلْتُ رَاجِعَةً إِلَى دَارَتِي، أُسَانِدُ وَجْعِي وَوَحْدَتِي مَعَ شَعُورِ غَرِيبٍ
بِالرَّاحَةِ وَالرِّضَى وَالسَّعَادَةِ الْمُبْتَنَّةِ. لَيْسَ سَهْلًا أَنْ تَعِيشَ حَقِيقَتَكَ
وَوَاقِعَكَ بِصِدْقٍ وَبَعِيدًا عَنِ الْإِنْتِقَامِ وَالْبُغْضِ وَالكَرَاهِيَةِ.

كانت جلسة صفاء بين الأخوات الأربع: محادثة في أمورٍ مختلفةٍ وخاصةً في نصيبِ الكُبرى، لم تكتمل فرحتها إذ تركها خطيبها لأنها لم ترض العيش مع حماها.

أما الوسطى فهي تعملُ وعندها هوسٌ للألبسة والأزياء والأصغر نجحت في الجامعة وتبحث عن عملٍ لها، وطلبت من لؤلؤة مساعدتها. تتأولن العصورَ وبعدها فُمن للدوران في " المول " الكبير في أقسام الألبسة النسائية. وتعيين ساعات فرحات بما يشاهدنه واختارت كل واحدةٍ منهن ما أعجبها ونزلن إلى الوسط يُكملن نهارهن بجمعة في قهوة، يُدخن النارجيلة؛ إذ ممنوعٌ عليهن التدخين أو النارجيلة في المنزل بعد مريض والدهن.

- سُررنا كثيرًا بمُرافقتك، لم نجتمع هكذا مسروراتٍ إلا قبل العيد وحيث الزحام والضجيج.
- اليوم جميلٌ بصحبتك لؤلؤة! يجب أن نكررها ولو مرة شهرًا.
- إن شاء الله في الأعيال والإجازات.
- لنرجع! لقد كثرت رنات "الموبايلات" تتصل من المنزل؛ فهي الأم تخاف على كريماتها، وتعلن تأخرنا.

صَعِدْنَ السَّيَّارَةَ وَتَوَجَّهْنَ نَحْوَ الْمَنْزِلِ عَلَى صَوْتِ إِيْسَا "وقالو سعيدة
في حياتها"، وبكاء البنات كلهن مصاحباً تلك الأغنية.

- ها قد رجعنا، و"بناتك صاروا عندك"! اسمحي لي أن أرجع إلى
بيتي، لقد تعبْتُ اليومَ كثيراً وغداً عليّ الإستيقاظُ باكراً؛ فكثيرٌ
من العملِ ينتظرُنِي.

- حبيبتي، كنتُ أرغبُ في بقائكِ ولكن لن أضغطَ عليكِ أكثر.
سيأتي اليومُ الذي أضمُّك فيه إلى قلبي في بيتك هنا دون أي
شعورٍ بالتطفُّلِ أو الانزعاجِ.

- سيأتي، سيأتي إن شاء الله... سلامٌ يا بنات، أراكنَ قريباً
وسلامي للشبابِ الجميلِ وإلى لقاءٍ قريبٍ. قبلاتي وتحياتي
للغائبينَ والحاضرينَ.

غادرتُ وفي قلبي وجعٌ ولكن لا أستطعُ البقاءَ. يلزمني زمنٌ طويلٌ
كي أعتادَ على نَمَطِ حياتهم.

أنا بحقٌ مسرورةٌ معهم ومسرورةٌ لقراري بالبقاءِ في منزلي؛ فهناك رائحةٌ
عطرةٌ لوردةِ حياتي وكلماتها وخيالها وكلّ شيءٍ يحكي عنها ويُخبرُ عن
أسرارها وسريرتها.

أَخَذْتُ حَمَامًا وَحَضَّرْتُ كَوْبًا مِنَ الشَّايِ وَحَمَلْتُ أُرَاقًاكِ وَتَمَدَّدْتُ
عَلَى الْأَرِيكِةِ أَنْهَلُ مِنْ مَعِينِ كَلِمَاتِكِ.

بَيْنَ دَمْعَةٍ وَابْتِسَامَةٍ حَقْبَةٌ مَلِيئَةٌ بِحِكْمٍ وَأَحْدَاثٍ غَنِيَّةٍ وَثَرِيَّةٍ وَلَا يَخْلُو الْأَمْرُ
مِنْ بَعْضِ فُكَاهَاتٍ تَجْعَلُنِي أُرْتَاخُ كَأَنِّي أَتَأَرْجِحُ فَوْقَ الْغِيَمَاتِ وَالْمُسُ
الْقَمَرَ وَأَعُدُّ النَّجْمَاتِ. وَعَفْوْتُ مَعَ مَذَكْرَاتِكِ وَمَعِيَ أَحْلَامٌ لَا تُعَدُّ وَلَا
تَخْصِي، عَلَى أَمَلٍ مَشَاهِدَتِكَ فِي مَنَامِي.

- مرحبًا كيف الحال؟

- لأبأس، الحمد لله.

- مَرَرْتُ كَيْ أَدْعُوكُمْ.

- جميلٌ جدًّا...!

- إلى أين؟ وما المناسبة؟

- لحضورِ حفلِ تخرّجِي واستلامي شهادةَ الماجستير، الجمعة

السَّاعَةَ السَّابِعَةَ مَسَاءً، جَمِيعُكُمْ مَدْعُوعُونَ. نَتَنَاوَلُ الْعِشَاءَ

وَنَحْتَقِلُّ، وَنَتَسَامَرُ وَنَتَسَلَى. هَلْ وَصَلَتِ الدَّعْوَةُ؟

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ. سَأَخْبِرُهُمْ وَنَأْتِي وَمَعَنَا بَاقَةُ رِدِّ وَعَلْبَةُ حَلْوَى أَيْضًا.

- هههههههه، بانتظاركم.

- السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. (حوار بين لؤلؤة وأختها الصغرى).

ومساء الجمعة لا يُشبهُ أيَّ مساءٍ؛ هو حافلٌ بالضحكاتِ،
وبالأهازيجِ، وبالأحاديثِ والاستماعِ للموسيقى والرّقصِ والفكاهة. لقد
كانَ مزيجًا من حريةٍ وحصّةٍ للتعبيرِ عن فرحِ اللقاءِ واستعادةِ شخصٍ
بُتِرَ من عائلتهِ بفعلِ شائِنٍ.

كلّ ما يمكن تصوّره كانَ حاضرًا إلا الحزنُ والبكاءُ والألمُ؛ غصةٌ
فقط في قلبِ اللؤلؤةِ، فلو كانتِ الغاليةُ حاضرةً لكانتِ الفرحةُ تامةً.
ولكنّه الموتُ، قاسي القلبِ، مفرّق اللذاتِ ومشتت الأحابِبَ أخذها
فرحلتُ. وكلّهم، مهما حاولوا، لا ولن يكونوا العوّضَ. رغم أنّ جزءًا
مني التأمَ وطابَ وجنّحتُ للمسامحةِ ومتابعةِ حياتي وكأنّ شيئًا ما كان؛
فأنا اليوم أحاول كتابةَ سطورٍ عمري برحمةٍ ومحبةٍ.

لا تخلو عباراتي من الملامةِ ومع ذلك استوعبني الأهلُ وحصّونوني
وأثنوا على وجعِي وباركوا فرحي. هم من تبقى لي في هذه الدنيا: الوالدُ
العاجزُ، والوالدةُ الطيّبةُ، والشّقيقاتُ الحنوناتُ والأخُ المظلومُ مثلي
تمامًا، لكن الفرق بيننا هو فقط أنّه لم يعلمَ بعد الحقيقةَ كاملةً ولا بنيةَ
أحدٍ أن يُخبره حتى لا تهتزّ أركانُ الثقةِ بالعائلةِ أكثر فأكثر...

هو الصّغيرُ المهزومُ، صاحبُ حضورٍ يُسعدُ كلَّ من حوّلَهُ وهو
الصّديقُ لكلِّ فردٍ بالعائلةِ على حدّى، دبلوماسيٌّ في تعاملِهِ، أقوى من

ظروفه. تَرَكَناه مع الوالدينِ وَدَخَلْنَا إلى غرفتي. جَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ مع بعضنا البعضِ ما لا نَجْرؤُ على الإفصاحِ به أمامَ الأهلِ. فَتَحْنَا قلوبنا وَأَصْغَيْنا لبعضنا. ذَرَفْنَا دُموعًا وَقَهَقَها عالياً؛ هي جلسةُ بناتِ صبايا بامتياز. جميلةٌ حقًا تلكَ اللَّحْظَاتُ التي نَسْرِقُها من الروتينِ ومن الجدِيَّةِ ومن الفروضِ. نَحْتَاجُ إليها بينَ العَيْنَةِ والأخرى. شعورٌ يُخالِجني وَيُجْبِرُني على البقاءِ وحيدةً ويا ليتَ ذاكَ الحاجزَ الاسمَنتيِّ في داخلي يَتَحَطَّمُ كي أُقِرَّ بِحاجتي إلى العيشِ بكنفِ عائلتي ولكن...!

الفصل السّادس

وكان اللقاء وُغِرَّت الصنارةُ في قلبين: الشابُ زميلها وهو دعاها
لشرب القهوة كي يسرَّ في أذنيها كلماتٍ وهمساتٍ في كلِّ اللغاتِ تُترجمُ.
عواطفٌ ومشاعرٌ وكان التبادلُ في النظراتِ وفي الكلماتِ وفي
الفرحِ اللذيذِ الذي لا يُشبهُهُ فرحٌ ولا يوازيه غيرُ إقامةِ حياةٍ مُشتركةٍ وبناءِ
عائلةٍ.

كان التقاربُ سريعاً واتفقَ رائدٌ مع لؤلؤةٍ على خطبةٍ بوجودِ الأهلِ
والأصحابِ من أجلِ الحصولِ على بركةِ الوالدينِ. وظَهَرَتْ أميرةٌ
بفستانها الزهريِّ وتاجها الفضيِّ المرصعِ. رَقَصَتْ الشَّقِيقَاتُ ودَبَكَ
الشَّبابُ وكانت ليلةٌ رائعةٌ؛ الجميعُ سعيدٌ لأنَّ اللؤلؤةَ سعيدةٌ والكلُّ يُجمعُ
على انسجامِ العروسينِ.

بَدَأَتْ حياةٌ جديدةٌ: مسؤوليةٌ وجُهْدٌ واختيارُ منزلٍ وأثاثٍ وهي
البسيطةُ المُعقَّدةُ التي لا ترضى إلا أن يكونَ كلُّ شيءٍ على أتمِّ
المواصفاتِ وتحفةً في الجمالِ. بعد دوامِ العملِ، صار العروسانِ ينزلانِ
إلى المعارضِ لاختيارِ الأثاثِ والمستلزماتِ واتفقا على السفرِ في رحلةٍ
شهرِ العسلِ عوضَ إقامةِ حفلِ زفافٍ، ولكن لا بدَّ أولاً من التَّشاورِ مع
الأهلِ وأخذِ موافقتهم.

وعُقِدَ القرانُ بأقلِّ من شهرٍ بعد أن أنهيا فرش الشقةِ وسافرا...

والصدمة الكبرى حصلت عندما رجعا؛ فقد كانا حزينين ومُتَقَيْنِ
على الطلاق! بلا أسباب وبدون مبررات تُذَكِّر، حصَلَ الفراق كما
الارتباط بصورة سريعة ودون بلبلة. هي اختارت الصمت والعمل وهو
أكمل حياته كأن شيئاً لم يحدث. حاول أهلها معرفة السبب، ولكن عبثاً
جربوا دون جدوى؛ فهي لم تتطرق بحرفٍ.

وحده الشقيق الغريب عرّف لماذا انفصلا؛ فهو توأما في العمر وفي
القدر وفي تحمّل الصعوبات والهموم.

لقد نعت رائد لؤلؤة بالمُخادعة لإخفائها حقيقة تربيته وولادتها وهي التي
لا ذنب لها والتي أظهرت حكمة تُحسب لها في التعامل مع مشكلتها
وصالحت نفسها وأهلها؛ ترى الزمن يكافأها بالعقاب الشديد: الطلاق
في شهر العسل! بشاعة البشر تُخفيها القشور وتجلّمها الظواهر.

تركها لذنوب لم تُقترَفه؛ فهي لم تختر ألا تتربى بكنف والديها.
جريمة عوقبت عليها البريئة الجميلة.

وقررت عدم الارتباط مرة أخرى وإكمال مسيرة حياتها في الاهتمام
بالمرأة المظلومة وفي كل المجالات وكيفما وقع الظلم. وقررت أيضاً
التعويض لعائلتها، العائلة التي رَفَسَتْها لأنها البنت الرابعة المرفوضة

بحسب نواميس المجتمع المليء بتقاليد مُهترئة لا تمتُّ لا للدين ولا للإنسانية بصلة.

"لؤلؤة النَّاضجة والنَّاجحة والذَّكيَّة والجميلة حظُّها سيءٌ!" هكذا تُرَدِّدُ والدتها بينها وبين شقيقاتها، اللواتي ارتبطنَ بزيجاتٍ تقليديَّةٍ ويَعِشْنَ حياةً جافةً. سَقَطَ رائدٌ ومعه حلمُ الفارس الآتِي فوقَ فرسٍ بيضاءٍ من تفكيرٍ لؤلؤةٍ وحساباتها للغدِ.

...ومع أوراقكِ الخريفية أَنهَلُ راحتي وأَسْتَمِدُ قوتي يا غالية!
هكذا هي الحياةُ تُمَعِنُ في سرقةِ حقوقنا وتُجَرِّدُنَا حتَّى من إرادتنا. إن كانت حساباتُ الرِّمَنِ بالسَّنواتِ فحساباتي باللحظاتِ؛ خمسةٌ وخمسون عاماً من الجهادِ والكفاحِ، خمسةٌ مهملاتٌ في برامجها والبقيةُ احباطاتٌ وفشلٌ وكثيرٌ من الحزنِ والألمِ وقليلٌ من السَّعادةِ والفرحِ ورغم ذلك أصبو دوماً لسني حياتي الأولى. أنا تلك الطِّفلةُ التي تُضْحِكُها أفراحُ الآخرين وتُبْكِيها أحزانهم . هي التي أقصى ما يُرْطَبُ أيامها حلوى الصِّغارِ من شوكولا وغزلِ البناتِ وغيرها من الحلويات البسيطةِ الشَّعبيةِ والرَّكْضِ

تحت المطرِ واللَّعبِ بالوَحْلِ والكتابةُ على الجدرانِ وبناءُ بيوتِ على الشَّطآنِ.

هي فقط خمسةُ أعوامٍ، و أما الخمسون فبقيةُ باقيةً.

مع أنّ قلّمي طفلاً مدللاً إلاّ أنّه عايشَ كلّ ثانيةٍ من هذا العمرِ العتيّ بلهفةِ المُتَعَطِّشِ لحياةٍ رائعةٍ بين الحروفِ والسَّطورِ وفي أمكنةٍ خياليّةٍ وبعيدةٍ وعلى أرضٍ واقعيّةٍ مؤلمةٍ تاراتٍ وتارةٍ هادئةٍ رزينةٍ. نعم! فبكلِّ امتنانٍ وشكرٍ وحمدٍ شهوٍرٍ وأكْمِلُ العَقْدَ الخامسَ والخمسون. يا ذاكَ العمرَ الثَّقِيلَ خَفَّفْ عني أوزاري وأوزانك.

دعني أطيّرُ كفراشةٍ أو عصفورٍ أو صقراً؛ فالطيرانُ يمدّني بطاقةٍ رهيبةٍ تَجْعَلُنِي أحياءَ لحظاتٍ خالدةٍ تمدُّ عُمْرِي أعماراً وأعماراً... لا أريدُ إلاّ نهاياتٍ في الجلولِ والأحراجِ والبساتينِ وبجوارِ النَّبَعِ أوحى تحتَ النّخيلِ، وفي الجبلِ والبحرِ ومعِي قوّةٌ تُجابهُ العواصفَ وتَنَحَّدِي الفصولَ وتَغْلِبُ العَيْظَ والقَيْظَ والصَّفْعَ والصَّقِيعَ، وقدرةٌ على الكتابةِ والتّأليفِ حتّى الرَّمقِ الأخيرِ والكلمةِ الأخيرةِ وآخرِ نُقْطَةِ حَبْرٍ في دواتي وعلى ورقتي الأخيرةِ أخطّ الوداعَ ليومِ الدّينِ.

غوغل يحتفلُ بذكرى مولدي والفيسبوك ووسائل التّواصلِ والأصدقاءِ، الكلّ إلّاي: فأنا أجمعُ دمعاتي في قارورةِ العمرِ وأمسخُ

بعضها عن وجنتي وأخطُ بأناملي كلماتٍ لاتشبه تعاويذَ السحرة، لا
وليست خرافاتُ إثمائي نبضاتُ قلبٍ ومشاعرُ وأحاسيسُ.

الجميعُ يطفئ الشّموعَ، أمّا أنا فأضيئُها ؟ وأتناولُ وجباتي
اللّغويةَ والتّحلياتِ الأدبيّةَ مع قلمي وشاشتي وطاولتي وكتبي وأوراقِي
وركني الجميلِ الذي هومهبطُ إلهامي ومَرْتَعُ لبناتِ أفكارِي وكوكبُ
لإبداعاتي

كلّ عامٍ وأنا قَلَمٌ يشدو بكلماتِ خواطرٍ وقصائدٍ وقصصٍ ومقالاتٍ
ورواياتٍ

ومن همساتِ قلمي المغرورِ، أختار هذه التّمتمات لأدونها لك
وأشاركها معك، يا حبيبتي الوحيدة:

" إذا كان حُبَّكَ المدادُ والقرطاسُ والقَلَمُ
لماذا أنا مُتَهَمَةٌ بالرحيلِ وخيانةِ الحبيب؟
يا معشرَ العالمين حجَمَ الأكوانِ أُحِبُّهُ
وياصاحبَ القلبِ الحزينِ والذّكري والحنينِ
بماذا تُراك راغبًا: بسطوري أم آهاتي أوشجوني
لن أقفَ لأدافعَ عني دائمًا بل سأرفعُ رأسي وأُغني

أمل حياتي مع أم كلثوم
وأبتسمُ بعيني وأرسمُ صورتك على وجهي
قليلٌ قليلٌ إذا ما قُلْتُ لك حياتي
فأنتَ عندي بكلِّ الآخرين
وأنتَ وحدك تكفني عن جناتِ النعيمِ
في دنيا الزائلين.
أترآك وضعتَ على قلبك حجراً
وأصببتَ بالعمى والبُكمِ والصَّمَمِ
وحزرتك حواسك وإحساسك
وانتفضتَ لرجولتك من كرامةٍ مهيضةِ الجناحينِ
وفاتك أنك لو شئتَ حبنا لرأيتَهُ في المنامِ
حارسك الشهيدُ
كأسك الفارغة، منقضتُك الملائنة، ومنقذتُك المكسورة
شواهد على معاركٍ تحنُّدُ كلِّ ليلةٍ، وقتَ خسوفي وساعةِ احتمائي
بسحاباتِ الخريفِ
نظاراتك المرمية وأقلامك الغبية وأوراقك الطائرة

تُرْشِدُنِي إِلَى رِكْنِكَ فِي وَطَنِي وَتَرْفَعُ لِي أَسْرَعَةَ الشُّوقِ وَتَأْخُذُنِي
إِلَى شَطْرَانِ لَوْلُؤِيَّةٍ

وَتَصْنَعُ لِي تَاجًا مُرْصَعًا وَسَوَارًا سَمِيكًا وَقِلَادَةً عَلَيْهَا رَسْمُكَ
وَوَخَاتَمَ سَلِيمَانَ الْحَكِيمِ.

هَنَّاكَ مَعَ النَّوَارِسِ يُقَامُ لِنَاحِفَلْ وَبِالْأَمْوَاجِ نَعْلُو وَنَتَأْرَجُحُ. نَلْمَسُ
النَّجُومَ وَنُعَطِّرُ الْغَسَقَ بِأَزْكَى الزَّهْوَرِ.

مَتَهَمَةٌ أَنَا وَهَوَالِيسُ بِالْإِتِهَامِ الْحَقِّ؛ إِنَّمَا هُوَ فَعَلٌ جَمِيلٌ عَنِ سَابِقِ

حَبِّ وَحْنِينِ

إِلَيْكَ يَا مَالِكَ الْعَمْرِ وَرَفِيقَ الرُّوحِ حُكْمِي،

حَبِيبِي إِلَى مَا بَعْدَ الْمَغِيبِ...

وَكَأَنَّنِي وَرَاءَ الْبِحَارِ حَيِّبٌ....

أَنْصَفِينِي يَا غَرْبَةَ سَنِينِي

وَمَعِي حَبِّي شَوْقِي وَحْنِينِي

كَذِبَ مَنْ قَالَ الْوَطْنَ أُمَّ

فَكَيْفَ لِلْأُمَّ أَنْ تَخْذِلَ وَلِيدَهَا

تَتْرِكُهُ لِلذَّلِّ، لِلْفَقْرِ وَلِلْعَوْرِ

سَقِيمًا حَزِينًا، وَجَائِعًا مَسْكِينًا

يلهث وراء رغيفِ قمحٍ غريب
ويتنشقُ هواءَ أغلبه فاسدٌ
ويُقْتَلُ ويُسَرَّدُ ويُهَانُ ويُسْتَعْبَدُ
باللهِ عليكم! ألم يصبِحَ الوطنُ مثلَ زوجةِ أبي
يشبهُ الشريرةَ السَّاحرة
وكأنه معتقلٌ وسجنٌ ومنفى
دعوني في غربتي مع أنيني
هناك سوف أدعي أنني مواطنٌ
برتبة مهاجر! هاربٌ من وطنه
مُمرِّقٌ لهويته وناكرٌ لانتمائه
عندما يكونُ الوطنُ كأمي
سيحضُنني، ويعانقني، ويشفيني
يُطعمني، ويُفرخني ويسقيني
وإن حَدَثَ غيرُ ذاك فوطني حينها هو غربتي
والمهجِرُ مكانٌ يحميني
من عذاباتِ الدنيا وصعوباتِ
العيشِ ويلقحني العليلَ

من عطر الياسمين وتهب علي
بين الحين والحين رياح الحنين
قاسِ ياوطنَ النجومِ
ظالمَ يا لبنانَ
لاجيءٌ في بلادِ اللهِ
بلاحقيةٍ أو جوازِ سفرٍ
بقلبٍ وحواسٍ وقلمٍ وقِرطاسٍ
ورزمةٍ ورقٍ.
ليرسَمَ خريطةً ويكتبَ تاريخًا
لوطنِ الأرزِ والصنوبرِ...".

ومع الطبيعة كل شيء رائع وساحر، ومع الأحباب كل حديث جميل. ينهمر المطر وترتفع درجات الصقيع، ينعكس في قلبي دفء وفي حلمي حين لتلك اللحظات التي لازالت تلح على ذاكرتي وتتصدّر الصور للجمع، وللحكايا، وللكنسنة المدللة وللدرة البيضاء، وللبطاطا المشوية، وللبخار المتصاعد من إبريق الزهورات، وللموقد في وسط الغرفة ولشاشة التلفاز وحتى لارتفاع أصوات السهاري الذين يلعبون

الورق أوالبرجيز؁ ولأصوات الرعد والبرق ولطرقات على الباب من قطة شريدة.

والعشاء حساء لذيذ وقطعة حلوى ونداء من الحنونة إلى الأسرة بعد حملة نظافة وإطفاء المصباح وأحلامنا البريئة وحرارة الأمان.

الفصل السّابع



على سبيل الحياة وقيد الذكريات...

عندما تجمع لحظات الحاضر مع الذكرى، تقف الدمعات في المآقي
وتتلوى الحروف في المحابر وتصرخ الكلمات على فوهة الأقلام.

ماذا جنيت يا إنسان؟ وبم تُفسر ما أنت عليه الآن؟

جبروت وتكبر وتخف وراء إحدائيات المجتمع الفخم من جاه
ومال وعزّ مُلتو، وانبعاثات لمداحن في صيف حره مثل جهنم وخطبه
يابس ينخره دود الربيع وتفتته عقب سكاره من راع جاهل أو عاشق فقير
يهوى أميرة القصر ويتمنى قربها ولومن وراء السور أوفي آخر مقصورة
مُسلقا الجدران.

هكذا هي باختصار رحلة قوي اعتقد أنه وملك الموت أصحاب وكان
مُتيقنا أن عمره سيطول طالما هو يملك المال والجاه لمن حوله ورحل
تاركا الكثير من الشئام والغزير من اللعنات.

لم يترك له خل ولا رفيق حتى الولد فرّ والزوج هرب ومات على
كرسيه الهزاز ولم تكتشف رحيله إلا خادمة بالصدفة؛ طرقت الباب
ولفتها الصمت العميق والسكون الرهيب فاتصلت بالجيران وهكذا تحوّل
الهدوء إلى صخب وبددت صافرات الذعر سكوت المكان وغص
بسيارات الإسعاف.

وَدُفِنَ بِفَعْلِ مَكْتَبٍ وِارَاهُ الثَّرَى، وَقَلَّةٌ قَلِيلَةٌ مِمَّنْ يَحْبُونَ أَنْ يُوجَرُوا سَارُوا
خَلْفَ نَعِشِهِ وَتَرَكَوهُ هُنَاكَ وَحَدَّهُ لِمَصِيرٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. وَدَمَعَاتُ
الْمُظْلُومِينَ حَجَارَةٌ مِنْ سَجِيلٍ لِمَعْتَوِهِ مَجْنُونٍ ظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْمَرَ
الشَّمْسَ لِتَشْرُقَ مِنْ مَغِيبِهَا وَأَنَّ البَدْرَ مَرَاتُهُ وَأَنَّ البَحَارَ انْعِكَاسٌ لِذَاتِهِ.
مَاتَ أَوْنَقَقَ كِلَاهِمَا رَحِيلٌ وَلَكِنَّ الفَرْقَ أَنَّ الأُولَى تُقَالُ لِلبَشْرِ وَالثَّانِيَةُ فِي
غَيْرِهِمْ تُقَالُ!

لنحافظ على إنسانية لأمنة لنا فيها ولنكفرم بعضنا؛ فنحن قوم
رُحَلٌ وَلَوْ سَكْنَا المَرْتَفَعَاتِ وَلنَمَلًا الكَوْنَ لَوْلَا وَأَلْمَاسًا وَذَهَبًا. مِنَ التَّرَابِ
وَإِلَى التَّرَابِ نَعُودُ.

أَيْتَهَا الغَافِيَةُ مَا بَالُ حَلْمِكِ؟ لَقَدْ سَرَقَ النُّجُومَ وَسَجَنَ العَصَافِيرَ
وَحَطَّ فَوْقَ الأَغْصَانِ، يَنْتَظِرُ الشَّرُوقَ وَبِكَلِّ عُنْجَبِيَّةٍ رَحَلًا إِلَى كَانُونَ
حَيْثُ الصَّقِيعُ وَالبَرْدُ وَالطَّقْسُ المَجْنُونُ. هُنَاكَ عَلَى قِمَمٍ بِيضَاءَ، اسْتَقَرَّ
تَارَةً يَبْنِي لَهَا مَنَازِلَ وَتَارَاتٍ رَجَالًا وَكَلَّهَا ثَلْجِيَّةً. مَعَ يَقِينِهِ أَنَّهَا بِالرَّغْمِ مِنْ
وَاقِعِيَّتِهَا سَتَدُوبُ وَتَتَحَوَّلُ إِلَى مَجَارِي أَنهَارٍ وَجَدَاوِلَ وَمَسْتَقَعَاتٍ
وَبَحِيرَاتٍ وَسَتَنْزِلُ إِلَى الأَعْمَاقِ تَغُوصُ وَيَسْبُحُ فِيهَا السَّمَكُ وَالحَيْتَانُ
وَتَعْلُو وَتَتَخَفَضُ لِتَكُونَ أَمْوَاجًا بِحَسَبِ مَزَاجِ الرِّيَّاحِ وَأَعْمَاقِ البِحَارِ.

دعك من التّهوضِ وتابعِ يومك لتغفوَ معك الأساطيرُ والخُرافاتُ
ووريقاتُ الحبورِ ورزنامةُ الذكرياتِ.
على أنغامٍ رائعةٍ ووسطِ أجواءٍ بديعةٍ، تتأرّجحينَ في الخيالِ تتطايرينَ
في الهواءِ تَعْبَثِينَ مع الغيماتِ ...
أرسلني لنا بريدكِ الفصليّ ولا تغفلي عن نفحاتِ الجمالِ، نحتاجُ
إلى رسائلٍ تُبشّرُنَا بتغاريِدِ الكلماتِ
وبإلحاحٍ نطلبُ اللّجوءَ إليك: سحرُك الذي لا يهدأ ولا ينام...
يا زمانَ الحُسنِ
ومكانَ الرّوعةِ
وكونَ الجمالِ
انظرْ إليّ
حتّى أتقنَ
وصالكِ
ودعني أهيمَ
في بُرجِكَ
لقد صالَ
القلبُ منكِ
والبالُ جالَ

ورَقَدَ الحَلْمُ
جَنبَكَ
وَمَلَكَ الفِكْرَ
خِيَالَكَ
ظَلَمَكَ سَحَابَةٌ
تَأْخُذُنِي مِنْكَ
إِلَيْكَ
إِشْرَاقَتَكَ
نُورٌ مَتَوَهِّجٌ
كُوكَبٌ مَنِيرٌ
وَفِي النِّفْسِ
بَدْرٌ مُضِيءٌ.
مَعَكَ تَسْجُدُ
أَبْجَدِيَّتِي
وَلَكَ تَدْعُو
كَلِمَاتِي.

شابت نواصي حروفي وغزا البياض كلماتها، ولا تزال قصيدتي
ترنح بغنج وطفولةٍ ودلالٍ، تبتسم بحركاتها وتضحك من علاماتها
وتثرثر في زوايا النسيان تأخذني إلى كتاب الذكريات وتمرُّ صور
الأحباب وتظهر لوحات الماضي كأنها أوراق الخريف وأمطار الشتاء
وأزهار الربيع ونسمات الصيف...

تميلُ النفسُ إلى ركنٍ جميلٍ ومعارضٍ فنيّةٍ وشرفاتٍ ياسمينيّةٍ.
يبرزُ القلمُ والقُرطاسُ يتعجّبُ والدّواةُ تفيضُ بعطرِ الزّنبقِ. أنتشقُ رائحةً
زكيةً وأكتبُ رحلةَ عمرٍ في نهايتها السّعيدة. نادراً ما أتركُ المحالَ لِنفسي
لمحاكمةِ النّاسِ؛ فقد سرّت العادةُ أن يجعلونني دائماً متهمًا وتصدرُ
بحقي كافةُ الأحكامِ والنّهْمِ متنوّعة. ولكنّ إيماني وضميري وقلبي هي
فقط حججٌ وبراءتي، ومن خلالها فقط يُمكنُ لهم أن يحكموا على أعمالِي
وماتبقَى مجردُ نثراتٍ عابرةٍ لا تُؤيّرُ في حياتي....

بكلِّ حالٍ أنا وحدي من يتلقى الطّعناتِ ووحدي من سيواجهُ
الصّعوباتِ؛ فلمِ الاتكالُ على مزاجيةِ مجتمعٍ أقلّ ما يُقالُ عن أعرافِهِ أنّها
خاليةٌ وعن تقاليدِهِ باليةٌ.

أنا المرأةُ التي تَصمُدُ في وجهِ الرّياحِ ولو اقتلعتُ أغصاني
وحطّمتُ فروعِي وبُعِثرتُ أوراقِي، فما في ذاتي عروقٌ حيّةٌ، فيها قوّةٌ

لتعودَ من جديدٍ، تَصُخُّ الدِّمَاءُ فِي الْيَبَاسِ فَيَعُودُ الْعُودُ نَضْرًا أَخْضَرَ .
فَالْأَنْوثةُ لَا تُسْجَنُ فِي كَمٍّ مِنَ السَّنَوَاتِ وَلَا تُحَدُّ فَقَطُ بِالْإِنْجَابِ؛ وَلَوْ
كَانَتْ هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ الْبِقَاءِ وَلَكِنْ لَيْسَتْ جَرِيمَةً إِذَا كَانَ قَدْرِي أَنْ أَكُونَ
أُمًَّ بَدِيلَةً وَبِالْوَصَايَةِ وَلِيَعْلَمَ الْجَمِيعُ أَنِّي تَفَوَّقْتُ عَلَى أَغْلِبِ الْأَمْهَاتِ مِنْ
حَيْثُ التَّرْبِيَةِ وَبِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَلَوْلَوْتِي دَلِيلٌ وَشَاهِدٌ عَلَى مَا أَقُولُ .
لَقَدْ عَلَّمْتَنِي أُمُومَتِي مَا مَعْنَى الْحَيَاةِ وَكَيْفَ أَعِيشُ بِسَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ .

مَعَ خَطَوَاتِهَا سِرَّتْ وَبِيَدِهَا تَمَسَّكْتُ وَالْأَشْوَاكَ مِنْ دَرُوبِهَا أَزَلْتُ وَغَالَبْتُ
مَعَهَا الظُّلْمَ وَالْإِرْهَابَ وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ جَلَادًا لِأَيُّهُمُ مِنَ الْأُمَّ إِلَّا الْمَخَاضَ
وَمِنَ الشَّرَفِ قَطْرَاتٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الدِّمَاءِ .

لَنْ أَصْغِيَ إِلَّا لِمَحَبَّتِي لَهَا وَلِكُرْهِي لِلظُّرُوفِ الَّتِي سَتَّبَعْنِي عَنْهَا
فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . وَلَكِنْ رَفِيقَتِي وَابْنَتِي وَحَبِيبَتِي وَيَا مَنْ يُمِثُّ كُلَّ مَا
أَعْطَانِي اللَّهُ مِنْ نِعْمَةٍ، لَنْ تَحْقُدَ وَلَنْ تَكْرَهُ؛ بَلْ سَتُنْفِئُ لِهَيْبِ نَارِ الثَّوْرَةِ
عَلَى عَقُولِ عِجَافٍ وَتُرْطِبُ أَلْسِنَةَ قَوْمٍ اعْتَادُوا عَلَى الرِّيَاءِ .

لَوْلَوْتِي انْتَرِي سِحْرَكَ، وَعِلْمَكَ، وَجَمَالَ رُوحِكَ عَلَى الْمَدَى
وَانْطَلِقِي بِرَحَلَةِ الْبَحْثِ عَنْ حَقِيقَةٍ سَوْفَ تُبَيِّنُ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ قِيمَةَ الْوَلَدِ
وَخَاصَّةً الْفَتَاةِ؛ فَهِيَ الْبِرْكَةُ وَالْإِبْتِسَامَةُ وَهِيَ نَافِذَةُ الرَّحْمَةِ وَبَابٌ لِلْجَنَّةِ .

فلا تَرَفْسوها فقط لِأَنتِها أَنثى! وَغَيرُ مَعقُولٍ أَننا ما زلنا نُمَيِّرُ بَينَ الذَّكْرِ
والأُنثى في الإِنجابِ وَالهُويَّةِ وَغَمِّ عَلَينا أَن وأدَّ الفِتاةِ حَرامٌ وإِكرامَها فَرَضٌ
ومعامَلَتُها بِإِحسانٍ سُنَّةُ النَّبِيِّ المُصطَفَى عَلَيه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

امضي يا لؤلؤتي البِيضاءَ وَتَوَهَّجي أَمامَكَ كَثيرٌ مِنَ السَّوادِ وَعَليكَ
واجبُ تَبدِيلِهِ بِكلِّ ما أوتِيتِ يَمِينُكَ مِنَ نورِ العِلْمِ وَالمَعرِفَةِ وَالإِيمانِ.
عَليكَ مَسْؤُولِيَّةُ تَكملةِ الرِّسالةِ؛ فلا تَتوقَّعي عَندَ رَحيلِي وَسَلَّحي نَفسَكَ
بَطِيبِ الكَلامِ وَحِكمةِ النِّساءِ، فَغالِبًا ما تَجدِينَ أَنَّ أرضًا قَافلةً قَد تَصيرُ
واحةً غَناةً بِفَضْلِ اللَّهِ.

مِن صَباحِكَ رَجوتُ هَدأتِي
وَوَهبتُكَ أَزمنةً مَسائِي
فَلاتسِءِ الظَّنَّ بِكَلِماتي
أَعْرِفُ مِنَ جَمالِكَ بَياني
وَأَجْمَعُ مِنَ روعَتِكَ فَصاحتي
أَنتَ قَصيدَةٌ عَلى بَحرِ الهوى
وَعلى وَزَنِ الذَّهَبِ وَقافيةِ البِياءِ
حِياتِي وَذَكَرِياتِي، قَلَمِي وَدَواتي
لا يَمَسَّنكَ شُعاعُ الغُرورِ وَالكَبرِياءِ
لا تَحْتاجُ إِلا لِقَلبٍ يَنبُضُ بِحَبِّكَ

وسطورٌ تُمَلأُ بوجدانِكَ وسِحرِكَ
تارةً قلّمي يجنحُ إليّ وتاراتٍ كثيرةً إليك
لحظةً كأنّها عامٌ تقفُ عليها أحلامي
معك رِيعانُ إبداعي وقمةُ بلاغتي
الصَّقورُ تحملُ إليّ منك القوةَ والوقارَ
والغيومُ تنقلُ لي رسائلَ الخيراتِ
والموجُ يهدرُ بدعواتٍ مع النورسِ
وتتَهجّدُ العصافيرُ بنغمِ الفصولِ
خريفِي كآبةٌ واصفراً
وشتائي صقيعٌ وثلجٌ
وربيعي مرٌّ كأنّه من الأمانِي
والصَّيفُ الحارُّ لا يستهوي فؤادي
غرامي عيناكُ وحبِّي ثورةُ أشواقِ
أحسِنُ مثوى الأيامِ حُرمةَ الفِراقِ
تثأرُ للسَّنواتِ وتزأرُ بكلِّ جُزأةٍ وثباتِ
حضورٍ كأنوارٍ وآمالٍ وغيابكُ
إلهامٌ وحنينٌ وترانيمُ الانتظارِ
ما بينَ الشَّفقي والغَسقي نكونُ

وتلتقي معنا وبنا الأضدادُ

دع عنك كبرياءك وامض سيرا إلى قلبي
فلا يدخله إلامن تعبٍ وشقي وقدّم شهادتٍ في الشوقِ
والحبّ.

ليس صحيحًا وليس سهلًا امتلاكُ مدادًا رمزُهُ نبضٌ ورسْمُهُ
خطوطٌ وإنما الحقيقةُ في اتجاهِ النفسِ إلى وطنٍ هُوِيَّتُهُ العشقُ ونشيدُهُ
الهُوى ورايَتُهُ تُعانقُ اللَّهَبَ وتَغزُو الجليدَ وتغدو في يمينِ حبيبٍ انتظرَ
فوقَ القِمَمِ....

أه من حبيبٍ جالبٍ للدمعِ ومُقدِّمٍ للحُزنِ ويُشعِرُ بالوجعِ ورُغمًا
عنه يُمعِنُ في ذاتِ الحبِّ. هكذا كانَ رفيقُ دربي نارًا وثلجًا. ومنه
تعلَّمْتُ فنونَ التعاملِ مع التعبِ والقهرِ وكلِّ ما يمتُّ للدنيا من قلبي
في الصَّعوباتِ والمشاكلِ. امتَهنتُ الصَّبْرَ في مواجهةِ أذى نوي القُرْبى
ورَمَيْتُ كلَّ كلماتِ الهزءِ ووَضَعْتُ أصابعي في آذاني. صَمَمْتُهما عن
الاستماعِ لنقصٍ في ذاتي وفي قِسْمَتِي ونصيبِي. الجلاذُ الاجتماعي
لا يَرْحَمُ، يَنْزِلُ فينا الضَّرْبَ وعلى الجُرْحِ.

نَنْزِفُ بِصَمْتٍ نَتَلَقَى السَّوْطَ وَنَسْكُتُ وَنُوجِهُ النَّظْرَاتِ الْقَاسِيَاتِ
وَالكَلِمَاتِ الْمُؤْذِيَاتِ وَنَمْضِي سَالِكِينَ الْأَشْوَاكِ لِئَصِلَ إِلَى مَا اعْتَقَدْنَا أَنَّهُ
الرِّضَى وَالقَنَاعَةُ لِلذَّاتِ. أَخَذْتُ وَلِيدَةً وَرَبَّيْتُهَا وَكَذَبْتُ حَتَّى عَلَى نَفْسِي.
أَحْبَبْتُ نَفْسِي بِهَا وَلَاجِلْهَا وَأَحْبَبْتُ بَرَاءَةً تُرْمَى عَنْ عَبَثٍ. وَعَامًّا بَعْدَ
عَامٍ تَوَطَّدَ الْحُبُّ بَيْنَنَا وَمَاتَ صَاحِبُ الْبَيْتِ وَمَلَأَتِ الصَّغِيرَةُ حَيَاتِي.
وَاجْهْتُ بِهَا الْعَالَمَ، وَعَلَّمْتُهَا الْقُوَّةَ مَعَ خُطُواتِهَا الْأُولَى، وَأَرْضَعْتُهَا
التَّسَامُحَ مَعَ الْحَلِيبِ.

غَدَتْ جَمِيلَةً الشَّكْلِ وَالرَّوْحِ. لَا يَنْقُصُهَا سِوَى حَقِيقَةٍ حَاوَلْتُ
دَفْنَهَا مَعَ كِتَابِ مُذَكَّرَاتِي فِي الْقَبْرِ. وَمَضَيْتُ مُصَدِّقَةً لِكَذِبَةٍ: أَنِّي أُمٌّ
وَأَنْجَبْتُ وَلَسْتُ بِدِيلَةٍ وَلَا مُنْتَهَكَةً لِحُرْمَاتِ النَّعَمِ! وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي فِي
هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ أَنَا تَلَقَيْتُ وَهِيَ رَمَتْ مُضْطَرَّةً، الضَّعِيفَةُ الْوَهْنَةُ وَالْمَغْلُوبُ
عَلَى أَمْرِهَا.

لِوَلُوتِي تَبَقَيْنَ كَنْزِي وَحَيَاتِي وَلَوْ كَرِهَ الشَّرْعُ وَعَارَضَنِي الدِّينُ
سَأَتَحَمَّلُ كُلَّ عَوَاقِبِ الْأَمْرِ. لَمْ وَلَنْ أُبَرِّرَ فِعْلَتِي وَلَا جَرِيمَةَ وَالِدَتِكَ.
اغْفِرِي وَحَاسِبِي مَنْ تَرَكَمَتْ أَعْرَافُهُ وَتَقَالِيدُ مُجْتَمَعٍ لَا زَالَ يَزْرَعُ تَحْتَ
وِطَاءِ اللَّازِمِ وَالضَّرُورِيِّ وَالْعَيْبِ وَعَقُولٍ ذُكُورِيَّةٍ يَلْزِمُهَا الْإِعْدَامُ وَالشُّنْقُ.

حاربي الكراهية بالمحبة، بها تتربعين على عرش ذي مكانة
سامية وراقية وفخمة وتحققين رسالة صعبة في إلغاء أفكار مدمرة
للإنسانية وكافرة بالله وجاحدة بالنعم. مثلك أنا ولدت شريده وإن كنت
قد ترعرعت بين أحضان عائلتي: ذكرياتي صعبة وطفولتي صامدة
صمود الثلج في نيسان.

كنت رافضة لكل ما يريحني ويُدْفِنني ويُسعدني. لقد وضعت نفسي في
مجموعة سندريللا وبائعة الكبريت والأميرة المخطوفة. كنت أمشي تحت
المطر، أصل إلى البيت وأنا أتساقط بللاً وأنال ما لزم من السخرية
والهزء، وكنت لا أراجع دروسي كلها ولا أنجز واجباتي؛ كنت مثل
السيارة التي يجرونها وفيها عطل ما أو خزائنها نفذ وقوده.
باختصار، كان تمردي على فكرة أنني زائدة في دنياهم، ولا يُعيروني
اهتماماً كما يليق بي، هكذا كنت.

كبرت وكبرت معي حس المسؤولية، ردمت حفراً ونتوءات في داخل
وجداني، ووضعت صمامات في أذني وسرت رغم أنف حزني بقهقهات
قوية وضحكات متتابعة وابتسامات دائمة.

ناضلت كي أصبح شابة مستقلة وحققت اسماً لي، واحترمت
شهادت الناس والعائلة حول شخصيتي؛ ولكن شهادتي بذاتي كانت

مُرْعَرَعَةً غير كاملةٍ تبغي أمرًا ممكنًا وغير مستحيلٍ ولكن في وقتٍ ما غير مُحَقَّقٍ.

كلّ شيءٍ في حياتي، كان من الصّعوبةِ بمكانٍ لدرجةٍ أنّي كنتُ مُتَرَدِّدَةً وخائفةً ومع ذلك مغرورةً ومُعْتَدَّةً بنفسِي ومُنْكَبَّرَةً. عَرَفْتُ في خيالٍ أدبيّ مع الأدباءِ والكتّابِ والشّعراءِ وابتعدتُ لفتراتٍ عن واقعٍ هزليّ. إذا أَصَعَّتَنِي، تَجِدُنِي وراءَ كتابٍ لطفه حُسينٌ أو المنفلوطيّ أو العقاد أو جبران، أو إحسان عبد القدّوس أو لِسِيرِ الأبطالِ أو لنزار قباني ومحمود درويش؛ هنا وَجَدْتُ بُغْيَتِي وراحتي وملجأِي.

لقد سَقَطْتُ عني صفةُ "الاجتماعيّة"! نعم، لا تروقُ لي اجتماعاتُ النِّساءِ ولا اجتماعاتُ الصّحبةِ والأصدقاءِ؛ أعتبرُها دونَ مستوى تفكيرِي. الدّنيا عَلَّمَتَنِي الكثيرَ وتَلَقَّيْتُ الصّرباتِ العديدةَ ولا أخفي الأشياءَ الجميلةَ التي مَرَّرْتُ بها وكلّها صَنَعْتُ مني قلمًا سيّدًا مُبَدَعًا وخارقًا للقلوبِ والعقولِ. التَّمَسْتُ من أبجديتي حمايةً وحِصانةً، ونَتَزْتُ ما خَفِيَ من أناملِي وما ظَهَرَ، وكَنَنْتُ سرًّا وعلانيةً: أحببتُ بكلماتي، كَرِهْتُ بكلماتي، انتصرتُ بكلماتي، وانهزمتُ بكلماتي، هي كانتُ أنا!".

وَطَنِي كَلِمَاتٌ بَنَيْتُهَا حَرْفًا حَرْفًا، وكَلِمَةٌ كَلِمَةً، وكتابًا كتابًا. أنتمي

لروحانيات الحياة، وهويتي مخطوطة من خَسْبِ الأرز، وريشاتي من
صقور الشرقِ ودواتي بحورِ الهوى مدادها عواطفٌ وأحاسيسٌ ملائكيةٌ.
مَعكِ لؤلؤتي، عَرَفْتُ معاني بناءِ الإنسانِ وأهميةَ تربيتهِ وتَحْفِيزِهِ
ورَفَعْتُ رياتِ التقديرِ لكلِّ الأمهاتِ المُنجباتِ والمُربيّاتِ. وَأَيَّعْتُ أَنَّهُ
ليس من الضَّرورةِ بمكانٍ أَنْ تتعاملَ بِسَلْبِيَةِ مع واقِعِكِ؛ ادرسوا الآياتِ
القرآنيّةِ ستجدون معانٍ غزيرةً تفيضُ بمتطلباتِ حياتنا. نعم، التَّبَيُّ في
الإسلامِ ممنوعٌ ولكن في آيةِ يقولُ الباري عزَّ وجلَّ: ﴿ لا تَقْتُلُوهُ عسى
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾^٢ إِذِنْ نَسْتَطِيعُ تربيةَ إنسانٍ لَمْ نُنَجِبْهُ وليس
تشريعا من البَشَرِ...

أنت بقاموسِ الدُّنيا ابنتي وبوجداني ابنتي ورفيقتي وحياتي. لم
أندمُ أبداً على تربيّتكِ، كُنْتُ جَدًّا مُتفاعلةً، كُنْتُ مرآةً لذاتي.
الطفلةُ الصَّغيرةُ الغريدةُ المليئةُ بالحياةِ صارتُ شابةً قويّةً،
واجَهَتْ قَدْرَها بتوَدَةٍ وَصَبْرٍ وَحِكمةٍ وَثباتٍ.

الحبُّ قليلٌ والعِشْقُ لا يكفي والهوى سَرْمَدِيٌّ معكِ، كبيرتي وصغيرتي
اللؤلؤةُ الجميلةُ. تَرَكْتُ لِكِ مُذْكراتي؛ هي تُشْبِهُ ورقَ الخريفِ من هنا
ومن هناك، تُشْبِهُ جنوني وفنوني. كلما أَرَدْتُ المُكوِثَ تحتَ فَيئِها،

^٢ سورة القصص، آية ٩.

أقربئها، وأفرحي فقد كُنْتُ فرحي الدائم وسعادتي الأبدية، وناقشيني
تعلّمين جيّدًا منك ومن الكثيرين تعلّمت مساراتِ خطوطي؛ عربيّة
الحرفِ والمؤلّدِ والمثوى والثرى والقلم.

فأرسدُ لأصيلةٍ بيضاء، سهيلها في مكة ووفع حافرها في
القدس، بُراقي أسرى بي ورفعني فُدرةً وهيبَةً ووقارًا، وأسبغ عليّ نِعْمًا:
كُنْتُ أنتِ كلّها يا نغمي الرائع وشِعري العكاظي ونثري الياسميني
الشاميّ.

الحُبُّ ليس جهلاً؛ الجهلُ هو الكُرهُ والبغضاء. الوُدُّ ليس ذلًّا: الذلُّ هو
الاستئثارُ والتفردُ واحترامُ الذاتِ، هو أساسُ لاحترامِ كلِّ الخلقِ من بشرٍ
وحيوانٍ وحجرٍ وطيرٍ.

فستانك الأبيض الذي رَقَصْتِ به في حفلِ عيدكِ العاشرِ لا
ينفكُ يَتَطَايَرُ شذاهُ في أرجاءِ المعمورةِ ولا تزالُ الورودُ والحلوى تُلَوْنُ
سهراتِ الطفولةِ المحرومةِ والمسروقةِ والمهدورةِ. وحتى "روب" التخرّجِ
لشهادتكِ الثانويةِ أسدلَّ روعتهِ وبيّضَ سوادهِ قلبي وأيامي وتلكَ الشريطةُ
الحمراءُ التي لَفَّتْ بها شهادتكِ كانتِ بِشارةً طيبةً وميثاقًا لشخصيةِ ابنتي
التي معها وبها حققتُ انجازاتٍ مُهمّةٍ في حياتي؛ وكانَ أعظمُها أمومي
وبُنوتكِ.

ولا أعالى إذا ما جَرَمْتُ أَنَّهُ لا يُشْبِهُنا إِلَّا ضبابُ أيلولَ وشمسُ نَيْسانَ
وزهرُ آذارَ ونسيمُ آبَ ورذاذُ التدى فوقَ خمائلِ الوَرْدِ. التمسْتُ من
صَوْمَعَتِي السَّماحَ لي كي أَنتَشِرَ بعَبقِ جمالِ رُوحِكَ وحضورِكَ الرَّائعِ
كي أَحطَمَ وحدتي وأهدَمَ جمودَ حروفي وَأُنثِرَ عِطْرِكَ وسِحْرِكَ على
المالِ. أَعْلَنْتُكَ حبيبتى ومِنْبَرى ودِواءَ قلمي وقِرتاسى.
أَنشودُتي التّى وَجَدْتُها ورَدَدْتُها وأبياتِ شِعْرى التّى نَطَمْتُها وأَلْفَيْتُها في
مساءِ اتى ولقاءِ اتى.

لا تَشْغَلِي بِأَلِكِ في البَحْثِ عن أمورٍ لا تَهْمُكَ، رَكْزِي يا مُبْدِعَتِي
على مُساعدةِ الضَّعفاءِ وانصِري المظلومينَ، هنا ستجدينَ فيكَ مصانِعَ
ومتاحِفَ ومعارضَ تُفْتَحُ للطفولةِ، ولِلأُمومةِ ولِلإنسانيةِ المكلومةِ
المقهورةِ المسلوبةِ. سَأَسِرُ في أَدُنْيِكَ أحداثاً أَبْكُتُنِي ودَبَّحْتُنِي من الوريدِ
إلى الوريدِ ووقفتُ بَعْدَها قوِيَةً بفضْلِ اللهِ وَكَرَمِهِ. مِثْلُ الشَّبَحِ، وَقَفْتُ بين
هاماتٍ من الظَّالِماتِ والظَّالِمينَ ومُرْوجي نظريةِ العبدِ والأسيادِ.
واتَهَمْتُ بكثيرٍ لم أَفْقَهُ حتّى لجريمتي، حاكموني وأذلوني وأمعنوا فيّ
وجعاً وألماً وضحكوا من دُموعي؛ فلم أبقَ في مُحيطِهِم، تَرَكَتُهُم لِصِغارِ
أُمورِهِم وتابعتُ سِيرى. التَّقَيْتُ بمن هم ألعنُ وأشرُّ يحاسبونكَ على
هَفَواتِ وسَهَواتِ ويمنعونَ عنكَ حُقوقِكَ وتَرَكَتُهُم وتابعتُ سيرى. وفرَضْتُ

على الجميع خاصيتي وشخصيتي وصنعتُ لي هيبَةً ووقارًا ولمعتُ في
سماءِ النجومية ولم أعتَر ولم أفتر. فقد استدلّيتُ على سُبلي من قساوةِ
البشرِ واستهدّيتُ لرُشدي من شناعَتِهِم. وليس صحيحًا أن الشرَّ أقوى
ولكن سُبحانَ اللهِ لنا قسمةٌ من هذا ومن ذاك.

وأنتِ يا لؤلؤتي كُنْتِ قِسمتي الحَيِّرة.

عندما تُوفِّي الزَّوجُ استقلَّيتُ عن كلِّ المساوئِ وقدمتُ أوراقِ
اعتمادي لكلِّ السفاراتِ التي تُعنى بالإنسانِ والحياة. أنشأتُ مؤسسةً
لمساعدةِ المرأةِ تحديدًا وهذه هي المؤسسةُ التي أريدُها أن تبقى تُقدِّمَ
الانجازاتِ والمساعداتِ النفسِيَّةِ والماديَّةِ لكلِّ ضعيفةٍ قليلةِ الحيلةِ
ومنبوذةٍ من مجتمعٍ أعرَجٍ وأحوَلٍ وأعتَرٍ وأغبر. سأكُتُبُ بعضَ الحالاتِ
التي مرَّت علينا وبكلِّ واقعيَّةٍ هي ليستُ نماذجَ ولكنها حالاتٌ حصلتُ
وتحصَّلُ في بلدي. ولكي أكونَ مُنصِّفةً معكِ ولا أحمَلِكِ الرِّهطَ العَليظَ
بعَدَ رحيلي، قليلٌ من الصَّورِ وكثيرٌ من الكتاباتِ سوف تكونُ وقودًا
يُضفي على المُعضلاتِ حُلولًا وأمثولاتٍ. كُنْتُ قَدَ ذَكَرْتُ بعضَ الحالاتِ
لأسماءِ حقيقيَّةٍ، وسأتابعُ، يا حبيبتي، عساني أضيءُ قناديلًا في ظلماتِ
ليالي القَهْرِ والعِهْرِ والوَعْرِ. من هنا وهناك نسوةٌ مرزُرنَ في شريطِ
حياتي:

اسمها عزيزة زَوْجُهَا وهي في الثَّالِثَةِ عَشْرَةَ. أُجِبَتْ أَرْبَعُ بَنَاتٍ
فَطَلَّقَهَا السَّيِّدُ الْكْرِيهُ، وَاِنْطَلَقَتْ لِلْعَمَلِ وَفَهَمَتْ أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَخَطَّى
الْمَبَادِيءَ وَالثَّوَابِتَ وَالْقِيَمَ. كَفَرَتْ حَتَّى بِالذِّينِ وَبِالدُّنْيَا. انْتَهَكْتَ الْعَزِيْزَةَ
وَصَارَتْ رَذِيْلَةً بِفَضْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْتَبَدِّ، لَا أَلْوَمُهَا وَلَكِنْ أَحْفُذُ عَلَى
أَفْكَارِهِمْ وَأَتَمْنَى حَرْقَهَا وَإِبْدَالَهَا بِإِجَابِيَّاتِ الْعِلْمِ وَأَبْجَدِيَّاتِ النُّوْرِ.
عَزِيْزَةٌ تَرَكْتُ وَرَاءَهَا أَرْبَعُ عَزِيْزَاتٍ، تَحَوَّلْنَ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ إِلَى
دَلِيْلَاتٍ مَعَ الْأَسْفِ.

أَمَّا مَرْيَمٌ فَهِيَ لَيْسَتْ الْمَجْدَلَانِيَّةُ وَإِنَّمَا هِيَ الدَّلِيْلَةُ الَّتِي غَارَتْ فِي
رِذَائِلِ الْوَجَعِ وَدَخَلَتْ فِي الْعِشْقِ الْمَمْنُوعِ وَأَحَبَّتْ زَوْجَ أُخْتِهَا وَانْتَهَرَتْهُ
وَمَا زَالَتْ...

وَحَلِيْمَةُ بَائِعَةُ الْوَرْدِ تَرَوَّجَتْ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ وَعِنْدَهَا مِنَ الْأَوْلَادِ تِسْعَةٌ
وَكُلُّهُمْ رُؤَادُ الشَّارِعِ، يَبِيْعُونَ الْوَرْدَ وَالْمَحَارِمَ، وَالشَّوَارِعُ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ فِي
الْقِيْظِ وَفِي الْبَرْدِ، وَالْمُنْمَرْدَةُ الْحُلُوَّةُ الَّتِي تَعْتَبِرُ كُلَّ النَّاسِ لَا تَفْهَمُ وَعِلْمُهَا
وَجَمَالُهَا هُمَا لَهَا الدَّرْعُ وَالْوَقَاءُ وَالْمَلْجَأُ. تَعِيْشُ بِمُفْرَدِهَا؛ لَا يُعْجِبُهَا أَحَدٌ
تَرْفُضُ وَتَتَّقُدُ وَتَشْكُو وَتَسْخَرُ وَمِنْ كُلِّ مَنْ حَوْلِهَا فَقَطْ لِأَنَّهَا مَحْرُومَةٌ
مِنْ عَاطِفَةِ الْأُمُومَةِ؛ فَمَنْذُ وِلَادَتِهَا تَرَكَّتْهَا الْحَنُونَةُ وَهَرَبَتْ لِتَحْيَا عِيْشَةً
فِي ظِلِّ رَجُلٍ آخَرَ وَأَبْنَاءٍ جُدِّدٍ.

كيف وافقك قلب الأم ورميت وراءك أربع بنات صغيرات؟ كل هذا فقط كي تنتقي من شقيقتك التي سرقت بيتك وطلقك وبناتك لأن بيت أهلك غرفة واحدة لا يتسع لكم؟! كيف خلعت عباةتك وارتديت ألبسةً شبه ألبسة: مُمَرَّقةٍ وعلى الموضة كما يُقال؟!

- " الدني بدها هيك، بدي عيش!"

- عزيزة! يوجد أشياء إذا ما خسرتها لم تعد لحياتنا معنى، فحاذري من الانزلاق في الرذيلة.

- ليست رذيلة ما أفعله، فأنا أعمل ولكن الرذيلة في البيوت. ماذا قدم لي أبي وأمِّي؟ أهلي طردوني وباركوا علاقة مريم بوالد البنات، وهو الآن بالسجن وهي تنتظره... إن شاء الله انتظر مؤبداً. ظلمني وضربني وذلني. كنت أشتهي لقمة الخبز. و كان يُجبرني على الاستعطاء وطلب المال من الناس، تصوري أنه كان يفجر غضبه فوق جسدي الهزيل بالكراخ و كان ممنوعاً علي الصراخ. كان يرسل البنات عند أمه ويبدأ يكيطني ضرباً ويؤلمني ويأولتي إذا أضرت صوتاً. كنت أرتجف خوفاً وفرعاً وأضع في فمي منديلاً كي لا تغلت مني الآه وليس الآخ!! لا اعترف بهم، قصدت أهلي. حياتي بدون طليقي أحسن

بِصِدْقٍ. ولكن تبقى الغصة كبيرة؛ فأنا مُضْطَرَّةٌ أَنْ أَبْتَعِدَ عن بناتي وألا أَرَاهُنَّ إِلَّا مَرَاتٍ قَلِيلَةٍ لِأَنَّي لَا أَمْلِكُ مَسْكَنًا. أَعْمَلُ عِنْدَ صَاحِبَةِ مَحَلِّ الْأَبْسَةِ، أُسَافِرُ مَعَهَا وَأَعِيشُ بِسَلَامٍ دُونَ وَجَعٍ وَلَا قَهْرٍ وَلَا ظُلْمٍ. عَزِيزَةُ الَّتِي هِيَ الْيَوْمَ أَمَامِي مُخْتَلِفَةٌ عَنِ عَزِيزَةِ الَّتِي تَرَكْتُهَا مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ. الدُّنْيَا غَيَّرَتْني شَكْلًا وَمَضْمُونًا. وَلَسْتُ أَنْدَمُ عَلَى عَيْشِي وَلَكِنْ كَلَّيْتُ نَدَمًا عَلَى كُلِّ لِحْظَةٍ بَقِيَتْ فِيهَا تَحْتَ سَقْفِ مَا يُسَمَّوْنَهُ بَيْتًا وَمَا هُوَ إِلَّا مُعْتَقَلٌ وَسِجْنٌ وَمَكَانٌ لِلْعَذَابِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ أَعِيشُ بِرَاحَةٍ وَسَعَادَةٍ عَلَى الْأَقْلِ بِلا خَوْفٍ أَوْ جُوعٍ.

عاشقان حتى الرشفة ما قبل الأخيرة. هي الصغيرة التي زوجت باكراً وهو الرجل المترن وهي متطلباتها تختلف عن عطاءاته. هو الجدار الذي له داخل وله خارج، انفصلا وعندهم أولاد. هي اختارت زوجاً كبيراً يدلها وهو ما زال يتزوج ويتزوج باحثاً عن بديل لها... لسْتُ بَصَدِّ الدَّفَاعِ عَنِ الْأَوْلَادِ وَلَكِنْ هُنَا الْكَلِمَةُ لَهَا وَلِهَا فَقْطٌ؛ مَعَانَتُهَا لَا تُقَاسُ بِمَعَامَلَاتِ قَاسِيَاتٍ وَانْفِصَالِهَا لَا يُشْبِهُهُ أَيُّ طَلَاقٍ... الْوُدُّ يَتَبَادَلَانَهُ بِالنَّظَرَاتِ وَتَرَاشِقُ الْاِتِّهَامَاتِ يَتَبَادَلَانَهُ فِي الْمَحَاكِمِ. تَعْتَرِفُ أَنَّهُ فِي لِحْظَةٍ ضَعْفٍ فَلَتَّ عِقَالُهَا وَلَكِنَّهَا اسْتَرْجَعَتْ ذَاتَهَا

وَوَجَدَتْ لَهَا زَوْجًا وَمَنْزَلًا وَعَمَلًا. قَوِيَتْ شَخْصِيَّتُهَا وَتَحَوَّلَتْ مِنَ الْمَطِيْعَةِ
الرَّقِيْقَةِ إِلَى الْمُتَمَرِّدَةِ الْقَوِيَّةِ وَلَمْ تَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. فَكَمَا أُتْرَابُهَا يَنْتَقِمَنَّ
مِنَ اللَّبَاسِ؛ فَأُولُ مَا يَفْعَلْنَهُ يَخْلَعْنَ الْحِجَابَ بِغَالِبِيَّتِهِنَّ وَيَبْدَأْنَ رِحْلَةَ
السَّفُورِ وَهَكَذَا بَرَأِيَهُنَّ يَنْتَقِمَنَّ مِنْ بَعْضِ مَا اعْتَرَاهُنَّ مِنْ إِجْحَافٍ بِحَقُوقِهِنَّ
وَقَمْعٍ لِحَرِيَّاتِهِنَّ. حَقِيْقَةٌ لَوْ كَانَ لِلْعَيُونِ لِسَانٌ لَنَقَنَّتْ أَلْسِنَةُ الشَّعْرِ عَنِ
قِصَائِدَ فِي الْإِطْرَاءِ وَالْمَدِيحِ وَالْوَصْفِ
وَالغَزَلِ! أَلَا لَيْتَ قَلَمِي يُتَرْجِمُ مَا سَمِعَهُ مِنْ دَوَاوِينِ فِي الْوَدِّ وَالْحُبِّ وَالْأُلْفَةِ
وَالتَّرَاحُمِ.

ورغم ذلك، كُتِبَ عليهما الفراقُ عِنْدًا واثباتِ قُوَّةٍ وَغَلْبَةِ وَاحِدٍ عَلَى
الآخِرِ، كَمْ أَحَبُّ وَأَتَمَّنَى:

أَنْ أُعَانِقَكَ بِشِدَّةٍ وَنَدْخُلَ الْجَنَّةَ
مِثْلَ عِنَاقِ النَّدى لُورِيْقَاتِ الْوُرُودِ
وعِنَاقِ الْأَذَانِ لِنَعَمَاتِ الطَّيُورِ
وعِنَاقِ النَّظَرَاتِ لِجَمَالِ الْحَوْرِ
وتلكَ أَحْلَامٌ وَلَيْسَتْ بِأَضْغَاثٍ
فَمَنْ آمَنَ ارْتَقَى وَسَمَا وَوَصَلَ
يَلْزُمُنِي مِنْ كَيْدٍ وَقَلْبٍ وَاتِّصَالٍ
وَبِشَارَةٍ تَأْتِي بَعْدَ طَوْلِ انْتِظَارٍ

الرَّكْضُ وَرَاءَ رُؤْيَا سَرَابٍ
وَالدَّنِيَا مِدَادُ هَوَاءٍ وَمَاءٍ وَتُرَابٍ
اخْتَرِ الدَّبَّ أَوْ الْعَوْصَ أَوْ الطَّيْرَانَ
لَا نُشْبِهُ الْعَبَّاسَ ابْنَ فِرْنَانَ
وَلَا نُزَايِدُ عَلَى الصَّقُورِ وَالتَّسْوِرِ
وَلَا نَصْنَعُ طَائِرَاتٍ وَلَا أَجْنِحَةً
وَحَتَّى لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَمِلَّ كَزَعَانِفِ
نَمْتِطِي أَمْنِيَاتِنَا وَنَتَسَلَّحُ أَحْلَامَنَا
وَنُشْهَرُ أَقْلَامَنَا وَنَرْفَعُ الْأَشْهَادَ
وَمَا حَيَاتُنَا إِلَّا حُرُوفٌ كُتِبَتْ
وَكَلِمَاتٌ سَطِرَتْ وَأَقْدَارٌ
نَبْضَاتُنَا تَلَاقَتْ وَالْعِبَارَاتِ
تَخَطَّيْنَا الْقِمَمَ لِنَبْلُغَ الْقَضَاءَ
لَسْتُ مُخْطِئَةً إِنْ كَانَ إِيمَانِي دَوَاءً
وَكُنْتُ أَنَا الْقِرْطَاسَ.
يَمِينِي أَنَّ الْحَبَّ رُوحٌ
وَمَا عَدَا ذَلِكَ كُلَّهُ أَشْيَاءٌ...
خِيَالَاتُ الْأَيَّامِ تُرَاوِدُنِي

وَحُلْمِي وَأُمْنِيَّتِي رَفِيقٌ هُو
تَوَّأَمٌ إِلَهَامِي وَأَجْمَلُ آمَالِي
خُذُونِي إِلَى تَنُورٍ أَوْاعْتَقُونِي
فَمَا بِي إِلَّا سَلَامٌ وَحُبٌّ وَحَنِينٌ
وَإِيْمَانٌ أَكِيدُ.

لَنْ أَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَا مِنَ الْجَانِ
يُفْرِحُنِي أَنْبِيَّ حَوَاءُ وَأَنْتَكَ آدَمُ
وَكَلَّانَا مِنْ تَرَابٍ.

خُذْ عَنِي كَثِيرًا مِنَ الْهَوَى
فَمَا اسْتَقَامَ عِشْقُ

وَلَا انْحَنِ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ الْحَبِيبُ
هُوَ الْقُشُورُ وَهُوَ اللَّبُّ وَالنَّوَى
وَهُوَ الْكُونُ فِي مِدَادِهِ
وَهُوَ الْمُعْتَمَرُ وَالظَّلَالُ
وَالْمُتَكَا وَالسَّلْوَانُ وَالثَّرِيَّاتُ
وَكُلَّ الْفَرَحِ وَالْوَرَى.

الفصل الثامن



بِسْمِ اللَّهِ وَبِحَوْلٍ مِنْهُ وَقُوَّةِ أَنْجَرَ اللَّوْلُوِّ الْمُنْثُورِ، فِيهِ وَقَعٌ وَفِيهِ خِيَالٌ وَفِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَرَءِ وَالْمَوَاقِفِ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْحَالَاتِ وَكُلِّهَا تَدَوَّرُ فِي مَحَاوِرِ الْمَرَأَةِ وَلَكِنْ مَقَالِي هَذَا سَوْفَ أَوْجِهُهُ لِمَنْ يَتَّهَمُونَ الْمَرَأَةَ الْمُتَحَجِّبَةَ الْمُتَدَيِّنَةَ بِالتَّخَلُّفِ وَبِالزَّجَعِيَّةِ وَبِمَحَبَّةِ وَبِحُرُوفِ يَاسْمِينِيَّةٍ أَخْطُ كَلِمَاتِي:

لِلَّوَاتِي يَشْتَعِلْنَ بِمَهَنِ الْإِعْلَامِ وَيَتَشَبَّهْنَ بِعَارِضَاتِ الْأَزْيَاءِ وَبِالزَّرَاقِصَاتِ وَبِالْمَغَالَاةِ وَدُونَ مِثَالِهَا؛ فَوَاحِدَتُهُنَّ تَسْرِفُ عَلَى شَكْلِهَا أَكْثَرَ بِسِنَوَاتٍ ضَوْئِيَّةٍ مِمَّا تَهْتَمُّ بِهِ بِبِرْنَامِجِهَا وَلِسَانِهَا وَمُضْمُونِ مَوْضُوعِهَا الْمَثَارِ. لِذَا تَرَاهَا تَقْتَعِلُ الْهَزَّ وَالْحَرَكَاتِ لِتَلْفَتَ نَظَرَ الضَّيْفِ وَتُشِيخَ بِتَرْكِيضِهِ عَنِ الْحَدِيثِ إِلَى النَّظْرِ وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْبِرْنَامِجِ الْمُقَرَّرِ؛ لِذَا وَجِبَ عَلَيْهِنَ ضُبُّ أَقْلَامِهِنَّ وَالخَجْلُ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ.

تَنْزِلُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ انْتِقَادًا لَيْسَ لِمُنْحَجَّباتِ الْيَوْمِ وَإِنَّمَا لِجَدَّاتِهِنَّ وَلِسَيِّدَاتِ يُفْتَرَضُ أَنْهُنَّ مَثَلٌ وَقُدْوَةٌ لِلْمَرَأَةِ عَامَةً. إِذَا شِنَّتِ النَّبْرَجَ وَالتَّعْرِيَّ، افْعَلِي وَلَكِنْ لَا يَحِقُّ لِكَ الْخَوْضِ بِأَمْرِ أَقْلٍ مَا يُقَالُ فِيهِ أَمْرٌ وَقَرَضُ رَبَانِيٍّ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّكَ حِينَهَا سَتَكُونِينَ مُلْجِدَةً أَكْثَرَ مِنَ الْمُلْجِدِينَ وَضَالَةً أَكْثَرَ مِنَ الضَّالِّينَ وَحَتَّى مِنَ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ. دَعِيَ الْخَلْقَ لِلْخَالِقِ

ومارسي تفاهاتك بعيدًا عن الحجاب. انظري إلى خلقِ الله من نباتٍ، هل تُثمرُ الأشجارُ بُنُوَّةَ عاريَّةٍ: كلُّها مخبَّأةٌ وملفوفةٌ بأغطيةٍ عدَّة. وحتى الحيوانُ، رُغمُ أنه لا يَتَزَيَّنُ بِرِداءٍ ولكن سُبحانَ رَبِّي، لقد كَساهُ صوفًا ووَبْرًا وجِلْدًا سَمِيكًا، يعني باختصارٍ كلِّ شيءٍ له مكانٌ يَخْتفي فيه كي يُظهِرَ الحُسْنَ والجميلَ وما تَوَجَّبَ ظُهُورُهُ وإِشراقُهُ.

أما بالنسبة لكوني امرأةً مُتَحَجِّبَةً؛ فقد أصابَتني سُخْرِيَّتُكَ بالصِّميمِ. بالإضافة إلى أنكِ حقًّا لا تَسْتَحِقِّينِ إِلَّا الشَّفَقَةَ؛ فأمثالكِ عِرَّةٌ ومَدَلَّةٌ ليس فقط للمسلمين ولكن للعالمِ أَجْمَع. لَوْ عَلِمْتَ أَنْتِ ومثيلاتُكِ معاني الحياة، لما تَجَرَّزْتِ على شتيمَةِ المُحَجَّباتِ واعتبارِهِنَّ جاهلاتٍ. يليقُ بِكِ أن تُسْطِطِي عنكِ أَقْنَعَةً تُخْفِي جوارِحَكِ المُتَعَرِّيةَ من إنسانيتها؛ فنحن يا سليقةً تَحَجَّبُنَا لأننا مُتَفَنِّعاتٌ بِالْحِجَابِ ولأننا مسلماتٌ وليس صحيحًا ما قَصَدْتِهِ: فَمَنْ الطَّبِيبَةُ والمُعَلِّمَةُ والمُهَنْدِسَةُ وحتى سيدةَ البيتِ إلى النَّاجحاتِ النَّابِغاتِ، ولم يمنعنا الحِجَابُ لا مِنَ العِلْمِ ولا مِنَ العَمَلِ، يارمزا للتفاهة بعيدًا عما تصفين به نفسكِ كعالمَةٍ أوقفيهةٍ. فأنا مسلمةٌ ومُتَحَجِّبَةٌ وفخورةٌ بحجابي وبعلمي وبقلمي! دعينا نَنصَحُكِ فنحن رمزٌ للانطلاقِ ولسنا سجيناتٍ. لا العولمةُ ولا العِلْمَنَةُ ولا حتى شهادةُ أُخِذَتْ

بالواسطةِ ولا وظيفةً أُعطيَتْ بالمحسوبياتِ؛ فحنُّ نِسوةٍ مُؤمناتٍ باللهِ،
ومُلتزِماتٍ بفرائضِهِ وسائراتٍ على خُطواتِ جداتنا وأمهاتنا وشقيقاتنا
ورؤوسنا مرفوعةً. ولسنَ مُعقداتٍ ولا أُماتٍ لغيرِ اللهِ. سيئةُ الاسمِ
والحضورِ، باختصارٍ أغلقتِ فَمَّكَ وافتحتِ قَلْبَكَ وآمَنِي والتزمتِ تَشْعِرِينَ
بثقةٍ أكثرَ ولا تكونينِ مثالا للضِياعِ والهَزءِ والسَّخريَةِ. يا ابنةَ الإعلامِ
المُمنهَجِ ضدَّ العَرَبِ والمُسلمينَ على السَّواءِ. من فوضى الثقافةِ وطرائقِ
العَيشِ في بلدي.

ومن سخرية الصدف أن تجتمع اثنتان تحت سقفٍ واحدٍ وهما زميلتان: خرقاءٌ كسولةٌ تعملُ وراءَ مكْتَبٍ وتقعُ على عاتقها مسؤوليةٌ مهمةٌ والثانيةٌ حاجبةٌ تمسحُ لها غبارَ المكْتَبِ. فيا لسخريةِ القَدْرِ! بابتسامَةٍ هازيةٍ، استقلبتُ الأستاذةَ أمنيّةَ زميلتها السابقةَ التي كانت مُتفوّقةً في الدّراسةِ وكانتِ الأولى على الصّفِ وعلى دُفْعَتِها. وبرزانةٍ، أجابتُ هُنا:

- التقينا بعد كلّ هذه السّنوات! وإنّ كُنْتِ تسألين لِمَ أعملُ هنا بالتّظيفِ ومعِي شهادةٌ؟ فالجوابُ هو أنّي لا اهتمّ بنوع العملِ، يكفيني أنّي أعملُ وأكفي نفسي ذلّ السّؤال.

- هل تذكّرين كمّ سخرتِ مني ومن قصاصاتي التي كُنْتُ ابْتَلَى بها؟

- ههههههه، إذن سننتقمين؟ إياك! صحيحٌ أنّك مدعومةٌ وبفضلِ هذه المعرفة، أصبحتِ مديرةً ولكنّ دعمي أقوى، فمن يسنُدني لا يعفو عن ظالمٍ!

- لا، لا يا صديقتي. وهل أنا صغيرةٌ لدرجةٍ أن أنتقمَ لذاتي من طفلةٍ مغرورةٍ بتفوقها، ومُعْتدّةٍ بنجاحها؟! فالنّجاحُ والفشلُ هما ابنا هذه اللّحظة!

- لا يا أمنية! العمل ليس معيارًا وإن كانت الفوضى في بلادي
تُرْعَزُ مَرَكَزَ الكفاءاتِ وتُخَرَّبُ المَواضِعَ وتَقْلُبُ المَواقِفَ. كَوْنِي
عاملةً تَنْظِيفِ لا يَهْدِرُ ذلك من إنسانيتي وأنا مُتصَالِحَةٌ مع
نَفْسِي، مثلي مثلُ الكثيرين مِمَّنْ يَحْمِلُونَ شَهَادَاتٍ وَيَعْمَلُونَ بِمَهَنٍ
مُتَوَاضِعَةٍ. هناك مَنْ يَبِيعُ مُتَجَوِّلاً وهناك السَّائِقُ والخادِمُ؛ و نحن
كُنَّا مُجاهدون: جِهْدُنَا مُضَاعَفٌ؛ فأنتم السَّارِقُونَ أَمَكِنَةٌ
المُسْتَحِقِّينَ. أَنْتِ مَنْ يَجِبُ أَنْ تَخْجَلِي!

- أَوْ لا تخافي من خسرانِكِ حتَّى لو طَيفَتِكَ المُتَوَاضِعَةُ؟!
- لا أَخَافُكِ ولا أَخْشَى حتَّى فُقْدَانِهَا؛ فَإِذَا اقْتَضَى الأَمْرُ، يا مديرة،
أَتْرَكُهَا لِكِ تَشْتَغَلِينَ بالمركزيين. عُدْرًا وليس منك، عُدْرًا مني لأتِي
اعْتَقَدْتُ للحظةٍ ما أَنَّ الصَّغِيرَةَ أَصْبَحَتْ كَبِيرَةً، أَقْلَهُ بالأيام،
والسَّلَامُ!..

أَخُطُّ عَلَى صَفْحَتِي أَبْجَدِيَّةً فِينِيقِيَّةً وَكَلِمَاتٍ عَرَبِيَّةً.

هُنَا أَتَنَفَّسُ عَبَقَ لُغَتِي

وَيَتَهَجَّدُ قَلَمِي فَوْقَ سَطُورِ عَصْمَاءَ.

وَخَدَهُ الْمَدَادُ الْأَزْرَقُ يَرْفُدُّ يَنَابِيعَ خِيَالِي وَإِبْدَاعِي.

غَزَارُهُ بِوَجَلٍ وَحَجَلٍ، فَصَاحَةٌ؛ قَلَمِي لَا يَهَابُ النَّضْبَ وَلَا يَخْشَى

الرَّكُودَ

دَائِمًا تَتْرَاحُ كُنُوزِي لِتَزِينِ عَقُولَ نَاشِئَةٍ وَلِتُجَمَلَ أَفْكَارًا شَارِدَةً.

لَا أَدْعِي وَلَا أَجَامِلُ وَلَكِنِّي مَلِكَةُ الْخَاطِرَةِ وَبِلَا مُنَازَعٍ أَصْبُ جَامٌ

قُوتِي فَوْقَ إِحَاحٍ لَاهِبٍ، يُشْعِلُ رِمَادَ السِّنِينِ وَيُبْعَثُ الْأَمَلَ وَيُرْوِي

الْحَنِينَ. يَا كُلَّ الشَّعْرَاءِ مِنْ أَرْمَنَةِ الْأَلْفِ إِلَى مَا قَبْلَ الْيَاءِ، لِنِتْلَاقِ فِي

سُوقِ عُكَاظٍ، نَتَبَارِزُ بِأَقْلَامِنَا وَنَتَبَاهَى بِصَهِيلِ قِصَائِدِنَا مُعَلِّقَاتٍ وَدَوَابِّينَ

وَكَلَّهَا غَزَلٌ وَحُبٌّ وَمَدِيحٌ.

عَاقَتْ النَّفْسُ السَّامَ وَالضُّجْرَ وَالْأَيْنَانَ وَمَأَلَتْ إِلَى السَّلْوَى وَالْفَرَحِ

وَالْوَتِينِ. خُذْ عِنَاكَ الْحُبَّ وَأَنْتُرْهُ فِي وَجْهِ الْمُحِبِّينَ. آدَمُ غَوَتْهُ حَوَاءٌ وَتَلَدَّدَ

بِالْتَّفَاحَةِ وَهَبَطْنَا مَعَهُ إِلَى الْحَضِيضِ رِيثَمَا يُقْضَى الْأَمْرُ وَنَرْجِعُ إِلَى

مَسَاكِنِنَا فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ. امْهَلُونِي كَيْ أَقِفَ فَوْقَ مَنَابِرِ الْأُدْبَاءِ؛ أَتَلُو

عَلَيْكُمْ رِسَالَاتِ الْعِشْقِ وَمَخْطُوطَاتِ الْهَوَى وَمَا بَيْنَ الثَّرْيَا وَالثَّرَى وَحِكَايَا

قلوبٍ وقِصصِ أحلامٍ ورواياتٍ وأُمْنِياتٍ عساني أبلُغُ سِدْرَةَ الشَّعْرِ وَأُنظِّمُ
بَيْتًا يَجْمَعُنَا: أُنَاتَاتُهُ حُرُوفٌ وَنَاسُهُ أَدْبَاءٌ.

في دُوَاتِي قَلَانِدُ لَكَ وَلِهَا أَوْسَمَةُ لِكَلِّ الْأَحْبَةِ. تَلَزَّمُنِي سِنَوَاتُ
ضَوْئِيَّةٍ كِي أَكْمِلَ تَعْدَادَ أَسْمَاءِكُمْ وَلَكِنْ لِكَلِّ مِنْكُمْ بَاقَاتُ زَهْرِ رَبِيعِي؛
شَدَاهُ يَأْخُذُكُمْ إِلَى النُّجُومِ وَجَمَالُهُ يُحَلِّقُ بِكُمْ فَوْقَ الْمَدَائِنِ وَالذَّرُوبِ.

عالي الجبين، ناصع النَّاصِيَةِ
عميقُ القَلْبِ، جميلُ العَيْنَيْنِ
رائعُ المَبْسَمِ وَحَادِقُ النَّظْرِ
عَطِرُ الحَضُورِ رِذَاذُهُ أبيضُ
يداهُ مَبْسُوطَتَانِ، كَرِيمٌ
يَدُبُّ فَوْقَ الأَرْضِ بِجَنَاحِيهِ
وَيُحَلِّقُ فِي الفِضَاءِ
نَاشِرًا زَغَارِيدَ الوَدِّ
وَتَغَارِيدَ الحُبِّ
وَأَبْجَدِيَةَ السَّنَا...
هُوَ رُوحُ القَصِيدَةِ
وَمَرَايَا القِرْطَاسِ

ومحابرُ القَلَمِ
هو المُنْطَلِقُ في الحياةِ
بلا تَكَلُّفٍ ولا وَجَلٍ
ولا تَصْنُوعٍ أو خَجَلٍ
بِجُرْأَةٍ وواقعيةِ
وبِخِيالٍ جارِفٍ
وَحَفْلِ تَكْرِيمٍ دائِمٍ
لبناتِ أفكارٍ لاتنام
ولا تَسْكُنُ ولا تَهْدَأُ

نَهَضْتُ مع الفَجْرِ وفي حُضْني رِزْمَةٌ من حروفٍ تُشْبِهُ عِصافيرَ
السَّنُونو تَبْغِي التَّحْلِيْقَ مع خُيوطِ الشَّمْسِ فترتاحُ عليها لتكونَ كِلماتٍ
تُزَيِّنُ صباحي وتُضِيئُهُ وتَجْعَلُهُ جَمِيلاً. لا أَفْقَهُ ألسنةَ المُدَّعينِ والمُدافِعينِ
عن المرأةِ بحسبِ عقليتهم؛ أي ضِدَّ أحكامِ الشَّرْعِ والدينِ، آخذينَ من
الحُرَيَاتِ الشَّخْصِيَّةِ مَطِيَّةً لِتُرْهَقَ أنفاسَ المجتمعِ. وكلَّ مشاكلنا بحسبِ
هؤلاءِ يعودُ في الأساسِ لحجابٍ أو للزَّواجِ المُبَكِّرِ، أو الأحوالِ الشَّرْعِيَّةِ
ويترجمُ قوانينَ لِيَتَنَا حافِظُنا عليها وسِرْنا وفقَ قواعدها. ويديرون
ظهورهم ويُسدِلون السِّتائرَ على المشاكلِ الحَقِيقِيَّةِ؛ فالنَّفْسُ البَشَرِيَّةُ تسوءُ

وتسودُ في زمنٍ اعتلى الإنسانُ فيه المنابرَ وأدلى بالرأيِ وُسم بالاعتدادِ
بالنفسِ وفوضى التقنياتِ وزحمةِ العولمةِ. المشكلةُ تكمنُ في النفوسِ،
لذلك لا بدُّ من الإشهارِ بها كي نُصوّبَ العُنفَ ضدَّ المرأةِ وكذلك العُنفَ
ضدَّ الإنسانِ ككلِّ.

التربيةُ والثقافةُ والعلمُ والمناهجُ الخفيةُ والظاهرةُ هي المسؤولةُ
عن كلِّ مصائبنا.

وما علينا إلاّ الرّؤيةُ السليمةُ والرّؤيا الواقعيةُ والتسلّحُ بالحواسِ والبصيرةِ
والقلبِ وكلّ قوّةٍ إلى أن نقرأَ النصوصَ وتفسيرها ونفقهها ونقتدي بها.
وما عدا ذلك فالحريةُ لا تملكُ إلاّ وجهًا واحدًا ولا يُمكنُ أن أكونَ حرّةً
في أن أؤيّدَ الزّواجَ المُبكرَ ولستُ حرّةً بأن أؤدّي رأياً معارضاً للعُنفِ
وللتتمرُّ وللكرهيةِ. وكيف أكونُ حرّةً وأنا ألومُ طرفاً من أطرافِ
الخصومةِ؛ إذ لا نزاعاً إلاّ بين اثنين أو أكثر. والانحيازُ بحدِّ ذاته يُفقدنا
التوازنَ والإيجابيةَ.

من الطّبيعيّ أننا كمجتمعٍ شرقيّ تحكّمه التقاليدُ والمظاهرُ؛ غارقون
بشعاراتٍ شتى منها المدنيّةُ والمظلوميّةُ وشتانَ بين ما نُريدهُ وبين ما
نُفعله. تتضاربُ الأفعالُ بالنيّاتِ وتتسوّهُ الأحداثُ من أبواقِ الشرِّ من
إعلامٍ ومحسوبيّن على العلمِ والفهمِ والتّنويرِ.

ياسيدات وياسادة المشاكل التي تعاني منها المرأة هي أولاً وأخيراً
المحور الذي يُبنى عليه وتدور من حوله الآراء وعليها تقع المسؤولية
إذا ما وجدنا الدوائر التي تفتعلها وتارة تسير معها وتارات تخالفها
بحسب الأهواء والمزاج وموازين المادة والصور والزخرفات.

التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها، نعم ولكنها هزت
العالم بكل الجهات. حتى أنها ارتضت أن تكون سلعة ومادة ولوحة
وشكلاً خالياً من المضمون؛ ولا مجال للتعميم ولكن غالبيةهن كذلك.

ها أنا أبحر في مداميك حرك البهي وألون سجايه الحميدة
بالوان الشفق وأعطره برذاذ العسق وأتلوه في مجمعات واجتماعات
أوحتي في مناسبات خاصة وعمامة فقط من أجل نفس كرمتني فأبرها
ولو بنشر الأفكار والعبر والعبارات.

منذ حدثتي وأنت رفيقة دربي وموجهتي ومربيتي وصديقتي
والتي أقضي معها أروع الأوقات.

اليوم فراقك صعب ولكن أترك في باقي. على دروبك سأسير ووفق
منهجك سأكمل المسير وكما عرفتني مرآياً للحب وللخير أنا سأبقى
هكذا ما حبيث.

لؤلؤتُكِ صارتِ لوليا الكبيرة يا أمي، مكنونةً ومنثورةً تحيا
صعوباتِ أترابها، وتأخذُ بأيديهن لِتُرشِدَهُن وتَصْرِفَ قُدْرَتِها كي تُصَلِّحَ
ذاتِ البينِ أو تُصَوِّبَ علاقةً أو تُحْضِنَ رضيعَةً أو تُعَلِّمَ صبيةً مهنةً تُحِبُّها.
أما عن حياتي فسوفَ أُنْتَظِرُ قَدْرِي لقد أنفقتُ ما وَسِعَ الجيبُ واختزنَ
من همومٍ وعذاباتٍ ويأسٍ.

لم أَعُدْ أُرَكِّزُ بحماقةٍ على مشاكلِي وصِراعاتِي، لقد تَوَجَّهْتُ إلى
أوراقِكِ الخَريفِيَّةِ أَجْمَعُها وأصنَعُ منها عقودًا ومواقفَ وحِكمًا ورِصانةً
بابتسامَةٍ وهديةٍ وكلمةٍ طَيِّبَةٍ.

ارقدي بسلامٍ يا حبيبةً؛ فالحياءُ دونكِ جَفَاءٌ. ولكنَّها مشيئةُ الله
وإرادتِهِ وكم أتمنى أن أكونَ
ابنتكِ الصَّالِحَةَ الحَقِيقِيَّةَ وها أنا أحاولُ...

لِكِ اللُّؤْلُؤِ المَنْثُورِ وَمِنْكِ وَكَلِّي أَمَلٌ أن يضيءَ أيامَ كَلِّ المَقْهوراتِ
بِقَناديلِ الرِّضا والتَّسليمِ ومقاومةِ كَلِّ شَنِيعِ وقبيحِ. كما أهديتُني الرِّوائِعَ
والكنوزَ، سوفَ أضعُدُ بها إِلَيْكِ برسالةٍ عساها تُبَيِّنُ لِكِ مِقْدارَ عُرْفاني
بجميلِكِ، يا جميلةَ الحضورِ والمُذَكِّراتِ واللُّؤْلُؤِ المَنْثُورِ!...

لستُ ضليعةً بالرواياتِ ولا القِصصِ ولا حتَّى بالأشعارِ، أنتِ
تَعْلَمِينَ أَنِّي أدورُ في فَلِكِ النَثْرِ وأعتلي مكانةً مرموقةً في إظهارِ

خاطرتي وإبدائي لسريرتي، لكِ ومن خالكِ، للنساءِ أجمع. فأنتِ، يا سيدتي، تَجْمَعين بناظري نساءَ العالمين الصّالحاتِ القانتاتِ، العابداتِ الصّابراتِ، والمُحارباتِ للضّلالِ والفسادِ والرّمزِ للحياةِ والمثالِ لمريمَ وزوجاتِ النّبي عليه الصّلاةُ والسّلامُ، أمّهاتنا، ولكلّ النّسوةِ الواردةِ أسماؤهن في القرآنِ الكريم. ولا أُغالي يا بانيةً، في ذاتي لغةً إذا ما وَقَعْتُ على الأذانِ تُمَطِّرُ فصاحةً وبِلاغةً وحُسنَ مآبٍ.

رسالتي إليكِ أمّي أنّك أنتِ لي الحياةِ ولو كنتِ في عِدادِ الموتى...
أُهديكِ كلماتٍ تُشبهُك، تَرسُمُ مساراتِ عِبقريتكِ وتَعزِفُ على أوتارِ القلبِ والوُجْدانِ. هنا لن أكونَ المدافعةَ عن تهمةِ آتِي من النّساءِ وبالمُوازاةِ لن أحاربَ كلَّ ابنِ آدَمَ، مهما اختلفتُ مع مفاهيمِهِ وإدراكِهِ وذكوريَّتِهِ.

البدايةُ في كونِ الحياةِ عظيمةً وهبّةً كريمةً إذا ما حافظنا عليها
وعشنا لحظاتها برصًا وبناءً عليه نكونُ قد وَفَّينا كَلَيْتِها وحقَّقنا الغاياتِ
وسرنا الدروبَ وترَكنا الآثاراتِ.

ولا يَخْتَلِفُ جاهلٌ ولا مُتعلِّمٌ ولا مُهتَمٌّ ولا غيرُ آبهٍ بكلِّ ما هو
واردٌ وصادرٌ: بأنّ بناءَ الإنسانِ مهمةٌ تُصعِّبُها التّقاهاتُ وتُعزِّقُ علوها
الثّرثاُتُ ولا شكَّ أنّ الأسسَ المتينةَ لا تكونُ إلاّ بثباتِ عُقولِ آمَنَتِ

بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعَمِلَتْ وَتَوَكَّلَتْ وَلَمْ تَتَوَاكَلْ. ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَوْرَتُهُمْ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^٣ آيَةٌ فِيهَا كُلُّ مَعَانِي الْبِنْيَانِ. صَحِيحٌ أَنْ دَرَسْتِي الْمِيدَانِيَّةَ كَانَتْ حَوْلَ الْمَرْأَةِ وَلَكِنَّ الْوُجُودَ بَرُمَّتَهُ يَتَنَابَوُ بَيْنَ الْمُوْنِثِ وَالْمَذَكِرِ، وَالْحَيَاةَ عَلَى الْأَرْضِ لِحْنِ خَالِدٍ يَتَشَارِكُ فِي عَزْفِهِ النَّسَاءِ كَمَا الرَّجَالُ، وَلَنَا مِنْ قِصَّةِ سَيِّدِنَا آدَمَ وَأَمْنَا حَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَيْرَ أَنْمُوذَجٍ، حِينَ نَزَلَا مِنَ الْجَنَّةِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، وَهَبِطَا إِلَى الْأَرْضِ وَمَعَهُمَا قُوَّةُ الْحَيَاةِ وَالْوِلَادَةِ وَالصَّرَاعَاتِ وَالنَّكَاتِرِ وَالْإِنْجَابِ.

وَفِي كُلِّ حَدَثٍ خَطَأٌ وَصَوَابٌ، أَمْثَلَةٌ وَأَيَاتٌ...

فَكَمَا عَلَّمَ الْغُرَابُ ابْنَ آدَمَ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ أَبْكَاهُ وَجَعَلَهُ نَادِمًا عَلَى فِعْلَتِهِ، عَلَّمْنَا كَيْفَ نَذْفُنُ الْأَخْطَاءَ وَنُتَابِعُ الْحَيَاةَ مُصَحِّحِينَ لِمَسِيرِهَا وَحَامِلِينَ مَا تَيَسَّرَ مِنْ عَاطِفَةِ آدَمِيَّةٍ تَكُونُ لَنَا الدَّرْعُ وَالْأَمَانُ؛ فَلَا الْبَكَاءُ يُعِيدُ مَيِّتًا وَلَا الْحُزْنَ يَنْجِي مِنْ مَدَامِيكَ الْإِلَهَامِ...

تَارِيخٌ يَمْضِي وَيَزِيحُ مُلُوكًا وَيُهْدِمُ ضَيْعًا وَيَبْنِي مُدُنًا وَنَصِلُ الْيَوْمَ إِلَى زَمَنِ أَقْلٍ مَا يَتَصَفُّ بِهَ إِنْسَانُهُ بِالضَّائِعِ الْحَيْرَانِ إِنْ لَمْ نَقُلْ أَنَّهُ فِي غَفْلَةٍ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. وَالْمَرْأَةُ هِيَ الْمُحَرِّكُ لِكُلِّ الْمُؤَلَّدَاتِ فِي سُنَنِ الْأَرْضِ

^٣ سورة التوبة، الآية ١٠٥.

من كلِّ موقعٍ أنتت: فهي الأمّ والمربّية والمُلهمة والمُصوّبة والمُربّنة
والمُربّبة لكلِّ الأجواء.

لن أُعيرَ اهتمامي لكلِّ مَنْ شَنَّ وَيَشُنُّ عَلَيَّ حَرْبًا عشوائيّةً لا
تمتُّ للمنطقِ بصلّةٍ، وسأقولُ بأعلى الصّوتِ دون خوفٍ أو جُبْنٍ أنّ
عمَلَ المرأةِ خارجَ منزلِها أفقدَ مُجتمعاتنا الكثيرَ من الأبناءِ القادرين على
مُواجهةِ الصّعابِ وإزالةِ الأشواكِ وإكمالِ الحلقاتِ وتعزيزِ نظامِ الحياةِ
الحقيقيّةِ. والدليلُ واضحٌ أمراضٌ وعللٌ تُتخَمُ مُجتمعاتنا وتُضعِفُنا وتأخُذنا
إلى الهاويةِ إلّا مَنْ رَحِمَ اللهُ.

الفصل التاسع

وحِذُّهَا الأُمُّ تَعْدِلُ كِفَّةَ المِيزَانِ. لا يَنْفَعُنِي مِنْهَا زَيٌّْ وَلَا يَعْزِينِي
جَسَدٌ عَارٌ وَلَا حَتَّى مَكَانٍ رَاقٍ وَذَلِكَ وَبِكُلِّ وَضُوحٍ وَصِرَاحَةٍ، وَجُودُ الأُمِّ
فِي بَيْتِهَا لَا يَنْتَقِصُ مِنْ قِيَمَةِ بَشَرِيَّتِهَا وَلَا مِنْ رُوعَةٍ وَجُودِهَا؛ فَكُلَّ عِنَاقٍ
وَتُوجِيهِ وَتَعْلِيمٍ وَتَحْفِيزٍ يُطْلَقُ مِنْهَا إِنْسَانًا قَوِيًّا، يُتَابِعُ وَبَيْنِي وَيَعْمَلُ
وَيَجْنِي وَلَا يَكُونُ عَلَى المُجْتَمَعِ عَالَةً وَحَالَةً. إِذَا كَانَتْ رَئِيسَةَ بِلَادٍ وَلَا
تَصْلُحُ لِإِدَارَةِ عَائِلَتِهَا فَمَا بَالِي بِمَرْكَزِهَا وَمَا هَمِّي بِمَنْصِبِهَا. وَإِذَا كَانَتْ
مَلَكَةً جَمَالٍ كَمَا يَرُوجُونَ وَتَعِيشُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا قِبَاحَةً وَشِنَاعَةً وَسُوءَ
أَخْلَاقٍ فَمَا يَفِيدُنِي سَحْرُهَا الخَارِجِيَّ وَدَاخِلُهَا مَظْلَمَ ظِلَامٍ لَيْلٍ فِي مَوْسَمِ
الشِّتَاءِ القَارِسِ.

ابْتَعَدْنَا عَنِ الإِيمَانِ وَهَزَلْنَا أَفْكَارُنَا حَتَّى بَاتَتْ الحُلُوفُ مَعْدُومَةً
وَالعُقُولُ عَقِيمَةً عَاجِزَةً عَنِ الإِنجَابِ.

نَرِيدُ امْرَأَةً أَوْلَوِيَّتُهَا بِنَاءُ الإِنْسَانِ بَدءًا بُولِيدِهَا وَصُولاً لِكَافَةِ الأَبْنَاءِ؛
فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَا تَعْدُو كَوْنَهَا أَكْثَرُ مِنْ كَلِمَاتٍ تُرْسَمُ وَلِهَا مَعَانٍ تَعْظُمُ
وَتَسْمُو بِسْمِوِّ كَاتِبِهَا وَعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِيعَابِ مَهَامِهِ وَعَلَى القِيَامِ
بِوَاجِبَاتِهِ. الأُمُومَةُ لَيْسَتْ وَظِيفَةً وَلَكِنَّهَا رِسَالَةٌ وَالمَرَأَةُ لَيْسَتْ سَلْعَةً بَلْ
هِيَ إِنْسَانٌ وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الفُوضَى سَوفَ تَقُومُ القِيَامَةُ قَبْلَ مَوْعِدِهَا
وَبِأَفْعَالِ كُلِّ مَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الإِعْتِقَادَ أَنَّهُ إِلَهٌ.

اللَّهُ شَرَعَ لَنَا الدِّينَ لِنَحْيَا وَكَلَّ مَا تَفْعَلُونَهُ يُؤَدِّي إِلَى الْهَلَاكِ وَمَا
يُحِيطُنَا يُخِيفُ وَيُرْعَزِعُ الثَّوَابُ وَيُضْعِفُ الْإِيمَانَ. الضَّرْبُ وَالصَّرَاخُ
وَتَصْوِيبُ الْخَطَا كَانَ أَسْلُوبًا فِي التَّرْبِيَةِ وَالْيَوْمِ تَغَيَّرَ وَصَارَ الْكَذِبُ
وَالنَّفَاقُ وَالصَّحْكُ عَلَى الْأَبْنَاءِ وَتَسْهِيلُ الصَّعَابِ، وَلَوْ بِالزَّيْفِ، طَارِيءٌ
وَحَاصِلٌ حَتَّى يَكْبُرَ الْإِنْسَانُ وَيَفْشَلُ وَلَوْ كَانَ فِي قِمَةِ النَّجَاحِ وَذَلِكَ
لَاخْتِلَالِ الْمَوَازِينِ فِي الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَمَا يَسْتَقِيهِ الطِّفْلُ مِنَ الْخَادِمَاتِ
لَنْ تَمُحُوهُ هَدِيَّةٌ وَلَنْ يَنْتَرِعَهُ احْتِقَالٌ يَلْزِمُنَا صِحْوَةً وَقَبْلَهَا ثَوْرَةٌ تُشْعَلُ
الْيَبَاسَ وَتَسْتَرِدُّ بَعْدَهَا التَّرْبَةَ الْجَيِّدَةَ لِلْإِنْبَاتِ.

المرأة إذا ما أهينت تكريم الأمة وكافة المجتمعات وإذا ما كُرِّمَتْ
على سبيل ما يحصل من حولنا تكون إهانةً حتى للحيوانات. شَوْهْنَا
الجمال، قَبَّحْنَا الْخَيْرَ، أَحَطْنَا كُلَّ مَنْفَعَةٍ بِالشَّوَاذِ الْحَرَامِ الَّذِي صَالَ وَجَالَ
فِي الْوُجْدَانِ قَبْلَ الْأَعْمَالِ.

نرى السَّفُورَ وَنَعِيشُهُ وَنرى التَّسْتَرَّ وَنَرْفُضُهُ وَنُجَادِلُ شَرَائِعَ
سَمَاوِيَّةً وَنَلْهَثُ وَرَاءَ مُزِيلَاتِ دُنْيَوِيَّةٍ.

تَكَادُ لَا تَخْلُو غُرْفَةً امْرَأَةً مِنْ كُلِّ الْأَعْمَارِ مِنْ مُبِيحَاتِ وَعَطُورَاتِ وَأَشْيَاءَ
لِلطَّرِيقَاتِ، لَنْ أَخُوَصَّ بِصِحَّتِهَا هِيَ لِلْمَنْزِلِ وَالْبَيْتِ وَكُلِّ مَنْ يَرَاهَا لَا حَقَّ
لَهُ فِيهَا؛ مَعَ مَلاحِظَتِي الْمَتَوَاضِعَةَ: الْجَمَالَ لَا يَكُونُ بِالصَّبِغَاتِ

والمجوهراتِ ولا بالألوانِ. جمالُ المرأةِ في قلبِها وِرصانِها وشخصيَّتها
وإنتاجِها وأنوثِها أولاً وأخيراً أدواتُ الرِّينةِ لا تُذهِبُ عيباً ولا تُغيِّرُ حقيقةً
بل تَخرِبُ وتُشوِّهُ وتَكدِبُ وتَخدَعُ. والأزياءُ كلُّها تنحو صوبَ العُري
والخروجِ عن نطاقِ الجَمالِ.

صارَتِ العَرابَةُ والاعتلاءُ على منابرِ الفَسادِ وإظهارِ المرأةِ
والرَّجَلِ كأنَّهما صورٌ خارجةٌ من عقلِ شيطانٍ يُسَوِّدُ البياضَ ويُبعِدُ
الحِشمةَ ويُمعِنُ التَّمزيقَ بالسِّتراتِ. ولكي أكونَ مُنصِفةً لماذا لا نجعلُ
من الرِّينةِ والأزياءِ عالمينِ إيجابيينِ كأن تكون للمعالجةِ وتكثيفاً مع حرارةِ
الطَّبيعةِ وعملاً بتحسينِ المعيشةِ واجتنباً لكلِّ الأرزالِ والدَّنسِ وتقويماً
لكلِّ اعوجاجٍ. ستبقى الحياةُ نتيجةً تفاعلِ ذكْرٍ مع أنثى وتوحدهما من
أجلِ بناءِ الأرضِ والسَّموِّ بالإنسانِ. وإذا ما رَكَّزنا على دورِ المرأةِ،
فلأنَّها المِحوَرُ ولأنَّها مصنعُ الرِّجالِ والنِّساءِ على حدِّ سواءِ. مثل نرجسةٍ
صغيرةٍ نَبَتَتْ فوقَ صخرةٍ مُعْطاةٍ بالتَّلوجِ البياضِ، وُلِدَتْ وعِشَتْ
وكافَحَتْ وناضَلَتْ. أنا المرأةُ التَّائرةُ الرَّاغِضةُ لكلِّ ما يَنْتَقِصُ من قيمةِ
الإنسانِ مهما عَمِيَتْ حواسُ النَّاسِ، ولو بَقِيَتْ وُحْدِي أُصارِعُ أفكاراً من
صنيعِ الأعداءِ. مرجعي نساءٌ صالحاتٌ ورجالٌ أنبياءٌ وشريعةٌ لو طُبِّقَتْ
لكنَّا نحيا جنةً على الأرضِ قبلَ جناتِ النِّعيمِ في السَّماءِ. نعم، الدِّينُ

القويمِ أَنْصَفَ النَّسَاءَ وَزَادَهُنَّ إِكْرَامًا وَعِزَّةً وَبَكَلَ الْمَقَابِيسِ وَالْأَوْزَانَ
وَالْمَعَابِيرِ وَالْأَحَاسِيسِ وَالْأَفْعَالَ.

لا تعنيني التفسيراتُ التي لا تُشبهُ مَوْرِدَهَا ولا التّطبيقاتُ التي
ظلمتها. فلنرفعِ السّوداويةَ ونُحَدِّقْ بِكَلِّ آيَاتِ الْقُرْآنِ، لنبدأً بسورةِ النَّسَاءِ:
يا نساءَ الأرضِ اقرأنها، تَدَبَّرْنَ معانيها واعْتَمَدْنَ على حَدْسِكُنَّ بلا زورٍ
أوبهتانٍ وسوفَ تَصِلُنَّ إلى كثيرٍ من إزالاتٍ للشّبهاتِ وللمناجِحِ التي
يَجِبُ أن نوردَ منها القوتَ والماءَ للرّوحِ والجسدِ وللإنسانِ والحياةِ.

وكلماتكِ الماثورةُ لا تزالُ أمامَ ناظري وفي مسمعي: " لا تَكُنْ
طُفَيْليًّا ولا تجعلِ من نَفْسِكَ حُطامًا

ودعِ القلبَ يقوُدُ وعقلُكَ المَكابِحَ؛ فالدنيا فيها من المُشْتَهياتِ ما لا يُعَدُّ
ويكثُرُ وكلّها مفاسدٌ تَحْرِقُ الأنفاسَ وتُذْهِبُ الصّلاحَ وترَفَعُ المَهانةَ وتُنزِلُ
المُكْرَماتِ. دعكِ منها واتكِلْ على اللهِ وركِّزْ خطواتكِ في دُروبِ الفلاحِ.
كلّ شيءٍ بَقَدَرٍ والقضاءُ محتومٌ والنّصيبُ محسومٌ؛ فعلامُ يا إنسانُ
تَلَهَتْ؟!!

وكلامي هذا لا يعني أن تَموتَ وأن تبقى طيلةَ العمرِ راجِعًا
ساجِدًا؛ فالأعمالُ حسناتٌ والكلماتُ صدقاتٌ والابتساماتُ والسّلامُ
والمودةُ، كلّها من الفرائضِ. امسحْ حزنَ أخيكِ وخذْ بيديهِ وقَدِّمِ الهدايا

للأهل والجيرانِ وعليكَ بالوردِ؛ فالوردُ صندوقُ العجائبِ، يَحْمِلُ رسالاتِ
جَمَّةً للحبِّ والشكرِ والعُرفانِ.

وكذلك تغاضَ عن كلِّ المساوئِ؛ فأنتَ لم تُخَلَقْ لِتُحَاسِبِ وَإِنَّمَا لِتُحَاسَبُ.
وعليكَ بالجوَدِ ولو كانَ قليلاً، ابنِ فوقَهُ ورافِقِ الكَريمِ وأَعِنِ البَخيلَ و
عن البُخْلِ ابْتَعِدْ. واذكُرْ دائِماً أَنَّكَ من طينٍ وَأَنَّ قَلْبَكَ يَجِبُ أن يَحْنُو
على العِصفورِ وعلى الحَيِّ الصَّغِيرِ والكَبِيرِ والباقياتِ الصَّالحاتِ هُنَّ
لَكَ حُرَّاسٌ وَجُنُودٌ فلا تَتَكَاسَلْ وبها تَهَجِّدْ.

ومن محبتي كَتَبْتُ وَأَوْجَزْتُ وليس كلُّ ما يهدي للأحسِنِ مادَّةٌ للتَّعَلُّمِ بل
النَّصيحةُ مجلَّةٌ بالمودَةِ وراجيةٌ للرَّحمةِ تكونُ بنوقِ الأرضِ وغزلاًنِها
وحتى بجيادِها يا بشرِ.

وفي النِّهايةِ، أقولُ قَوِّ إيمانَكَ وَكُنْ على يقينٍ أَنَّ مَنْ خَلَقَكَ بِكَ أَرْحَمُ
من العِزِّ والجاهِ والمالِ والولَدِ.

وسلامٌ على مَنْ اتَّبَعَ هَدْيَ النَّبِيِّ وعاشَ حِياتَهُ بنورِ القرآنِ ورضا الرَّحمنِ
وكانَ قَوِيًّا فالْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ من الْمُؤْمِنِ الضَّعيفِ.

البيئَةُ الحاضِنَةُ لِلطَّفيلِيَّاتِ بيئَةٌ تَخْتَصُّ بالرَّطوبَةِ والماءِ الرَّاكِدِ
وفي أمكنةٍ بعيدةٍ عن الأنوارِ والأضواءِ.

وَمَنْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مِنْ صِنْفِ الطُّفَيْلِيَّاتِ هُوَ شَبَهُ إِنْسَانٍ وَلَأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ
عَنْ ثَلَاثِي وَأَجْبَاتِهِ وَيَتَحَوَّلُ إِلَى مَخْلُوقٍ لَا يَشْعُرُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ
الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ، الْكَلِّ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، فَهُوَ فَقَطْ يَدُورُ فِي فَلَكِ الذَّاتِ وَيُثَبِّتُ
الْوَجُودَ بِالْأُنَانِيَّةِ وَبِالْأَحْرَى أَنَا الصَّحُّ وَأَنَا الْأَقْوَى وَأَنَا أَوْلَا أَحَدٌ يَطِيحُ
بِالْمَبَادِيءِ وَيَصِيحُ لِلتَّقَاهَاتِ وَيُصِرُّ عَلَى إِيْذَاءِ النَّاسِ وَيُْمَعِنُ فِي تَخْرِيْبِ
العَلَاَقَاتِ وَتَحْرِيْمِ كُلِّ مَا يُعَارِضُ مَا يَعْتَقِدُهُ مَصْلَحَتَهُ وَرَغْبَاتِهِ وَأَهْوَاءَهُ.
وَيَجْهَرُ بِالْعَدَاوَةِ وَيُشْهِرُ الْكِرَاهِيَّةَ، وَيَتَسَلَّحُ بِالْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَلَا يَتَوَانَى عَنِ
الغَيْرَةِ وَالْجُورِ وَالظُّلْمِ وَالْكَذْبِ دَرَبُهُ الدَّائِمُ وَالْاِحْتِيَالُ سِيَاسَتُهُ وَكُلُّ سَوَادِ
رَفِيقِهِ وَالشَّمْسُ عَدُوُّهُ وَالنُّورُ لَا يَعْنِيهِ، وَلَيْسَ فِي قَامُوسِهِ عَرَقٌ أَوْ جُهْدٌ
وَلَا تَعَبٌ، يَطْلُبُ دَائِمًا مَا لَيْسَ لَهُ، يَتَمَنَّى مَصِيرَ غَيْرِهِ وَعَيْنُهُ عَلَى أَرْزَاقِ
الْآخِرِينَ. شِكَاوَى وَدَمَعَاتٌ وَأَهَاتٌ كُلُّهَا تَطْفُو فِيهِ وَلَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ
الْحَقِيقَةِ وَلَا تَمَّتْ لِلْوَاقِعِ بِصِلَةٍ.

طُّفَيْلِيَّاتٌ بَيْنَنَا تَتَكَاتَرُ وَتَمَلُّ جَنَبَاتِ أَيْمَانَا، وَبِلَا مَنَّةٍ أَوْ تَرْتَرَةً،
وَبِلَا نِقَاشٍ هُوَ ذَاكَ الْإِنْسَانُ الضَّائِعُ، بَاخْتِصَارٍ هُوَ الْمَيِّتُ عَلَى قَيْدِ
الْحَيَاةِ.

فَالْحَيَاةُ رَائِعَةٌ إِذَا مَا كُنَّا أَنْأَمَلِ وَعَقُولًا وَقُلُوبًا وَحَوَاسًا وَإِحْسَاسًا وَلَا
تَمَّتْ لِلرُّكُودِ وَلَا لِلْعَيْشِ مِنْ وَعَلَى حِسَابِ الْآخِرِ فِي الْوَقْتِ وَالرَّاحَةِ وَالزَّادِ

والمال. لا تَكُنْ طُفَيْلِيًّا وَلَا تَدَّعِ شَرَفَ الذِّكَاةِ؛ فالغباءُ كلُّ الغباءِ إلا تتَعَمَّ
بما أهداك إياه الرَّحْمَنُ وخاصةً القُدرةَ على العملِ، ونزعِ فتيلِ غَضَبِ،
على منحِ ولدِ والرِّضا بالأحوالِ وتركِكِ للعيونِ التي لا ترى إلا ما هو
سيءٌ وصمِّ الأذَانِ عن كلِّ رديءٍ وإيقافِ نَبْضَاتِ القلوبِ التي تَحْفُقُ
لغيرِ اللهِ وحرَقِ الأفكارِ التي تُشْعِلُ نيرانَ التَّفْرِقةِ والتَّشْرَدِمِ والانقساماتِ
للوطنِ الكبيرِ وللشَّعبِ العظيمِ.

هويةٌ من وَرَقِ حَرِيرِي، ودستورٌ بخطوطِ لؤلؤِيَّةِ وَعَلَمٌ يُرَقِّفُ
في حُلْمِ الطَّفولةِ، ونَسَمَاتٌ تَلْفَحُ خَيالاتِ البُطولةِ، ومطرٌ يروي تربةَ
النَّفوسِ الظَّمآنَةِ. هي أضعفُ خلقِ اللهِ كلِّهم، هي الأمُّ أينما وُجِدَتْ،
وفي أيِّ زمانٍ، هي التي تُكَبِّرُ ومن أحشائها يولِّدُ الرِّجالَ والنِّساءَ. وهي
المُعَلِّمةُ التي تُدرِّسُ الأجيالَ، وهي التي تهتَّمُ بردائي، وتطهو طعامي،
وتمسحُ دمعاتي ساعةَ الأحزانِ، وترسُمُ ابتساماتي، هي التي تكُنُّبني
سُطورًا في كتابِ الحياةِ، وهي التي تقرأني لِتَكْتَشِفَ ما يجولُ في أروقةِ
ذاتي، تُصَوِّبُ أفكارِي الشَّرِيدةَ، وتُحَفِّزُ منها الرِّشيدهَ، هي آيةٌ مُقدَّسةٌ
وُجِبَ الوُضوءُ قبلَ ذِكْرِها ولمسِها وعناقِها، واليومُ يا وطني الرَّاحِلَ مازلتُ
أُحِبُّكَ، وَأَنْشُدُكَ في الصَّباحِ وقبلَ النَّومِ، وأكثرُ الأعمالِ التي أُحِبُّها
الوقوفُ أمامَ قَبْرِكَ والحديثُ معكَ، اليومُ أنا فخورةٌ بانتمائي إليك أكثرَ

وأَعْتَرُّ بِكَ وباسمِكَ المنقوشِ في أعماقِ وجداني وفي عقلي وفوقِ شِغافِ
قلبي وعلى جبيني. وهل أجملُ من اقتراني بالفَرَحِ ياسعادتي، وأسرُّ
لِترابِ مثواكِ أنِّي أحاولُ أن أكونَ مُمَيَّزَةً بين أترابي وكما عهدتيني. أحبُّ
إخوتي وأخواتي ويزدادُ حُبِّي لهم وينمو مع ازديادِ عُمرِي وسِنيني، وطبعًا
أَشْتَغِلُ على بعضِ ما كُنْتُ أَنْتِ تعملينَ عليه ولكن أحدًا لا يَمَلَأُ شغوركِ؛
لا أنا ولا ملايينُ النساءِ العظيماتِ. أَنْتِ تختصرينَ، يا والدتي كلَّ
النساءِ وتحضرين دوماً في نجاحاتي والتي بتواضعٍ أضعُها تَحْتَ قَدَمَيْكِ
ولن أخلُجَ من القولِ أنَّ حذاءكِ تاجٌ فوق رأسي وأنَّ أحلامكِ وطموحكِ
دينٌ في رقبتي وأنَّ وصيتكِ قانوني ومنهاجي، تلكِ الوصيةُ الصَّامِتَةُ
والتي أَخْبَرْتَنِي بها عَيْنِيكِ ساعةَ الوداعِ. أَمَلُكَ اليومَ من الجرأةِ كفايةً
لأقولُ أنكَ أَنْتِ كَوْنٌ فسيحٌ بكواكبِهِ المضيئةِ وشمسِهِ ونُجومِهِ وأقمارِهِ
وأرضِهِ وهوائِهِ ومائِهِ وحدائقِهِ وبساتينِهِ! كَوْنِي الفسيحُ الذي أَبْدَعَ الخالقُ
فيه سَوَفَ تَبَقَّيْنَ لي مَرْتَعًا وحُضُنًا وإلهامًا ودُواءً وقِرطاسًا وكُنُبا على
مَرِّ الزَّمانِ.

لأسطحٍ ولشرفاتٍ والنوافذِ والأبوابِ حكاياتٍ ورواياتٍ للهروبِ
والاسترخاءِ والرَّاحةِ بَعْدَ مشاكلٍ وتعبٍ وعناء. ومن ذكرياتِ الصَّيفِ

أيامَ زمانٍ، الاستلقاءُ على سطحِ المنزلِ وَعُدُّ الشُّهُبِ والنَّجْمَاتِ
والاستمتاعِ بروعةِ وجمالِ السَّماءِ كأنَّها مرآةٌ كبيرةٌ للعظمةِ والإبداعِ.
ومن ذاكرةِ الشِّتاءِ الوقوفُ خَلْفَ النَّافِذَةِ ورميُّ النَّظَرَاتِ مع الأمطارِ
ومراقبةُ النَّاسِ وهم يَرْكُضُونَ وَيَتَدَافَعُونَ في الطَّرِقاتِ. ومن حاضرةِ
الخَرِيفِ الوُقُوفُ على الشَّرْفَةِ والاستماعُ إلى بُكاءِ العَصافيرِ المغادرةِ
والإنصاتُ إلى ضجيجِ العَنِمَاتِ ومراقبةُ الكادحينِ وتناوُلُ الهمومِ بين
الجارَاتِ. ومن حاضرةِ الرَّبِيعِ الانطلاقُ وتشريعُ الأبوابِ، تضيقُ المنازلُ
وحتى الشُّوارِعُ وتتَّسَعُ البراري للزَّهْرَاتِ. وفي كلِّ اللَّحْظَاتِ، هناك أَمَلٌ
ومَحَبَّةٌ وتفاوُلٌ ورَجَاءٌ رُغْمَ كَيْدِ الأَحْزَانِ والأَوْجَاعِ.

وَكَمْ من زَاهِقَةٍ قَضَتْ وَكَمْ مِنْ مُتَمَرِّدَةٍ بَقِيَتْ وما زالَ الحِوَارُ
مُسْتَمِرًّا بَيْنَ البَقَاءِ وَبَيْنَ الرَّحِيلِ. وكلُّ نَفْسٍ عليها بالحياةِ وإلاَّ النَّدَمُ بعد
فواتِ العَمْرِ وانقضاءِ الزَّمانِ. وكأَنَّنا نَهِيْمٌ ونَسْرُحٌ ونَتْرَاحُمُ مُتَنَاسِبِينَ كُلَّ
القوانينِ والشَّرَائِعِ والسُّنَنِ؛ فِلا عَقْلٌ نُسَخَّرُهُ ولا قَلْبٌ نَرْفُذُهُ والدُّنْيَا كِراقِصَةٍ
غانيةٍ يَلْهَتْ وِراءَها الذِّكرانُ وهي سِرابٌ. أمَّا الحَقِيقَةُ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ
سِرابًا والدَّلِيلُ قَطْعِيٌّ في وُجْدانِ كُلِّ إنسانٍ ولِأَنَّها مرافِيءٌ لِلرَّحِيلِ أن
تزوَدَ بما في الحَقائِبِ من أَعْمالٍ وكَلِماتٍ وَهَفَواتٍ وإِرهاصاتٍ وَخَطايا

وَحَسَنَاتٍ وَكُلَّهَا مِنْ هُنَا، مِنْ هَذِهِ الْفَانِيَةِ فَلِمَاذَا تَكُونُ سَرَابًا وَتَكُونُ حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا صَحَارَى جَدْبَاءَ .

أَوَّلًا لِأَنَّهَا كَرِهْنَا الْإِسْتِقَامَةَ وَمَأَلَتْ الْأَنْفُسَ نَحْوَ الْهَوَى وَطَابَ لَهَا
الْعَيْشُ فِي ظِلَالِ أَشْجَارٍ غَيْرِ وَاِرْفَةٍ وَلَا مُثْمَرَةٍ وَلَا نَافِعَةٍ. وَالسَّبِيلُ
لِاسْتِبْدَالِهَا بِأَشْجَارٍ جَيِّدَةٍ هُوَ الرَّجُوعُ وَالذَّهَابُ إِلَى شَرْعِ اللَّهِ وَمَنْ هُنَا
يُصْبِحُ الْإِعْوَجَاجُ مُسْتَقِيمًا وَتَصْلُحُ كَافَةُ الْأُمُورِ . وَالْبِدَايَةُ تَكُونُ مِنْ نَفْسِكَ
فَلَا تُقَلِّ لَوْلَدِكَ صَلِّ بَلْ عَلِّمَهُ كَيْفَ يُصَلِّي وَلَا تُتَّبِعْهُ مِنَ الرَّدَى بَلْ أَرِّزْ
مِنْ دُرُوبِ الْعَثَرَاتِ وَدَعِّهِ يَسِيرُ وَيَكْتَشِفْ ذَاتَهُ وَيُلَاحِظْ أَهْمِيَّتَهُ كَوْنُهُ
مَخْلُوقٌ وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ، سَخَّرَهُ اللَّهُ لَهُ وَوَاجِبُهُ الْإِهْتِمَامُ
بِكُلِّ نِعْمِ اللَّهِ وَبِالتَّأَكِيدِ خَلَقْنَا لِتَعْبُدَ اللَّهَ وَلِنَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً وَنَرْضَى بِنَصِيْبِنَا
مِمَّا أُعْطِيَ لَنَا، وَمَاعِدَا ذَلِكَ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الشَّدَةِ وَالصَّعُوبَةِ يَزُولُ وَيَضَعُرُ
وَيَنْدَثِرُ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ. الْأَوْلِيَّةُ لِلْمِيزَانِ عَقْلَكَ وَقَلْبَكَ وَحَوَاسِكَ وَكُلُّ أَنْفَاسِكَ
وَكَلِمَاتِكَ وَأَعْمَالِكَ مَقَابِلَ كِتَابِكَ الَّذِي سَتَأْخُذُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَيْمِينِكَ بِإِذْنِ
اللَّهِ.

خُذْ الْيَمِينَ اتِّجَاهَكَ وَسِرِّ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَسَلَّحْ وَاجْعَلْ مِنَ الْخَرَابِ
بِنَاءً وَمِنَ الدَّمَارِ عَمَارًا وَمِنَ الْبُورِ أَرْضًا خَصْبَةً وَمِنَ السَّوَادِ بِيَاضَ .
نُورُ رَبِّكَ يُطْفِئُ فِيكَ كُلَّ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ وَشُعَلَاتِ إبْلِيسَ وَحَرَكَاتِ

الشياطينِ واتكلْ على ربِّكَ واستغفرْهُ واعملْ. اللهُ قالَ في كتابهِ الحكيمِ ﴿وقلْ اعملوا﴾^٤، وكثيرٌ منا كُسالى وحتى العالمونَ منا يترَّحونَ كأنَّهم سُكارى أو مُتعبونَ. واجِبٌ علينا الإِتقانُ بالعمَلِ وكلِّنا نُهدِرُ الوقتَ ونُسْقِطُهُ ولا نَجْعَلُ لَهُ قيمةً إلاَّ باللَّهو والاستجمامِ ونُسْرِفُ ونُبَدِّرُ في الهوى ومَلذاتِ الدُّنيا الخرساءِ ونعيمِها القادمِ إلى زوالٍ وغالبيتنا لا يعرفُ للنعمِ الثابتةِ الباقيةِ التي تربو وتتمو بحياتنا ومماتنا معنى، ومنها حوارنا مع الله بالصلاة والإنصاتِ إلى حديثِ الحبيبِ، وتلاوةُ سُنَنِهِ والاقْتداءُ بسيرِ الخُلفاءِ والأجدادِ والصالحينِ الأخيارِ.

مجردُ اتقاننا للمعرفةِ الحقَّةِ لِنعمِ اللهُ يشعِرُنَا بأشياءَ مُختلِفَةً تُقَرِّبُنَا إلى الملائكةِ وتُنشِطُنَا للعباداتِ المفروضةِ كُلِّها وبكلِّ مسارٍ أعمارنا. القلبُ مكانٌ للأحلامِ ولِلأُمْنِيَّاتِ وللنَوَايا الحِسانِ والعقلُ مقرٌّ لإصدارِ القراراتِ وتنفيذِ ما يخوضُ به القلبُ من نَبْضٍ وانفعالاتٍ. الرِّضا من النعمِ الحِسامِ بكلِّ ما أُوتِيَ لنا وما لم يُؤتِ إلينا وبقضاءِ اللهُ وَقَدْرِهِ. حالةُ الرِّضا لا تَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا؛ فهي المفتاحُ إلى الحياةِ بمقربةٍ من اللهِ وهي مفتاحٌ لِلْفَرَجِ ومفاتيحُ لِكُلِّ الأبوابِ المُغلَّقةِ في دُروبِ الحياةِ. كُنْ مع اللهِ ولا تُبالِ وامضِ حامداً شاكراً ولا تُدْهِبْ أَيامَكَ في

^٤ سورة التوبة، الآية ١٠٥.

جفَاءٍ؛ فالوَقْتُ سيفٌ إذا ما انقضى بلا بَصَمَاتٍ وهو تمامًا كالقلم يُبْرِى
لِيَحْسَنَ كِتَابَتِكَ وَلِيَجِدَّ فِيكَ كُلَّ شَيْءٍ: شكلاً ومضموناً؛ فتنقِّدْ إلى
وَقْتِكَ المعلومِ ولا تَسْقُطْ بسُقُوطِهِ وتترَفِّعْ عن الخوفِ لغيرِ اللهِ

ومن ذِكْرِيَاتِ الطَّفُولَةِ حَارَةً مَلِيئَةً بالحياةِ، غزيرةُ الصَّجِيحِ كَثِيرَةٌ
الْحَرَكَاتِ، فِيهَا الكَلُّ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ. تَلَوُّنُهُ وَتَنَوُّعُهُ يَزِيدَانِهِ أَلْفَةً وَوِدَادًا.
وَفَجَاءَةً، جَاءَ الْغِيلَانُ، وَأَحْرَقُوا الْمَنَازِلَ وَعَانَثُوا بِهَا الْفَسَادَ وَأَمَعَنُوهَا قِتْلًا
وإِجْرَامًا. وَشَوَّهُوا مَعَالِمَهَا وَوَصَلُوا حَتَّى إِلَى الْوُجُوهِ وَالْقُلُوبِ وَالْوِجْدَانِ.
كَرِهْتُ طِفُولَتِي زَمَنًا أَرْهَقَتْ فِيهِ دِمَاءُ الْأَبْرِيَاءِ. وَسَيِّمْتُ مِنْ عَيُونِ تَلْمَعِ
خَوْفًا وَنَوَاصِ تَرْكَعُ دُؤْلًا وَالْإِنْسَانِيَّةِ تَقْضِي غَدْرًا وَالتَّقَاةِ صَارُوا مُلْحِدِينَ
وَالْحَامِي أَصْبَحَ مَعَ الْأَعْدَاءِ.

تَبًّا لِلْعَرَبِ وَسُخْقًا لِلوَحْدَةِ الَّتِي بِهَا تَغْنُوا فِي زَمَنِ التَّخْدِيرِ حَتَّى
النَّسِيَانِ وَالتَّشْهِيرِ بَلَّغَ أَقْصَى التَّجَاذِبَاتِ بَيْنَ طَرَفٍ وَاحِدٍ هُوَ الْقَاتِلُ وَبِلَا
حِيَاءٍ. وَعَلَى وَقَاةٍ وَقَبَاةٍ حَوْلُونَا إِلَى مَكَانٍ لِإِطْلَاقِ السَّهَامِ وَمَشَارِيعِ
مَوْتِ بِلَا أَكْفَانِ.

حَرْبِ السَّنَتَيْنِ فِي طَرَابِلُسِ لِبْنَانِ.

الفصل العاشر

وُلِدْتُ وَحِيدَةً وَعِشْتُ وَحِيدَةً رَغِمَ أَتَى مَحَاطَةً بِجَمْعِ غَفِيرٍ مِنْ
النَّاسِ مِنْ مُخْتَلَفِ الاتِّجَاهَاتِ وَالْأَطْيَافِ وَمَعَهُمْ أَتَمُّ وُجُودِي وَلَوْ كَانَ
اللقاءُ قَلِيلًا وَكَادَ يَكُونُ أَيْضًا مُنْفَرِدًا. يُغْنِينِي عَنْ كُلِّ الدُّنْيَا ابْتِسَامَاتُ
وَوَجْهُ جَمِيلَةٌ وَكَلِمَاتُ طَيِّبَاتٍ.

ها أنا أَسِيرُ مَسْلُحَةً بِقَلَمِي وَمَكْتَبَتِي وَإِجَابِيَّاتِ صَغِيرَاتِ
وَمُغْمِضَةٍ حَوَاسِي عَنْ الضَّجِيجِ وَالصَّرَاحِ وَكُلِّ مَا يَسِيءُ لِقَلْبِي النَّقِيِّ
وَلَوْجَدَانِي النَّقِيِّ وَلِنَفْسِي السَّامِيَةِ.

تَاجِي حُلْمٌ لَا يَمَسُّهُ التُّرَابُ وَخَطَوَاتِي ثَابِتَةٌ فَوْقَ أَرْضِ الْوَاقِعِ
وَصَوْلَجَانِي قَلَمٌ وَدَوَاةٌ. لَا أُرِيدُ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا مَا يُعْجِبُ رُقِيَّ أَفْكَارِي وَلَا
مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا مَسَاحَاتٍ رَائِعَةً مَعَ الْمَاءِ وَالشَّجَرِ وَالطَّيْرِ وَالسَّحْرِ.
هنا في كُونِي لَا حُدُودَ وَلَا يَوجَدَ مَنزَلٌ بَيْنَ الْجَدْرَانِ، سَاعَاتِي إِلَى مَا لَا
نَهَايَاتِ وَأَمْكَنتِي فِضَاءَاتٌ. وَمِنْ بَقْعَةٍ الْوَجَعِ يَنْتَصِرُ وَطَنُ الْجَمَالِ وَمِنْ
مِيَادِينِ الْأَحْزَانِ قِيَامَةُ الْفَرْحِ.

لَا لِلْخَلْفِ أَوِالْجِهَاتِ فَمَنَافِذِي سَمَوَاتٍ مَلِيئَةٌ بِالنَّجْمَاتِ وَبَدْرٌ فِي
كُلِّ الْأَيَّامِ. يَخْتَفِي مِنِّي الْكُرْهُ وَيَسْلُبُنِي الْأَلْمُ كُلَّ أَسَالِيبِ التَّخَلُّفِ وَالانزِلاقِ
وَتُبْعِدُنِي الْمَشَاعِرُ الْبَيْضَاءُ عَنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجَانِ. مِنْ حَوْلِي
أَبْجَدِيَّةٌ تُثْرَثِرُ وَهِيَ فِي السَّكُونِ فَكَيْفَ تُرَاهَا تَكُونُ مَعَ الْحَرَكَاتِ؟! لُغَةٌ

وَلَادَةٌ بَلِيغَةٌ تَكَادُ لَا تَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِنجَابِ وَلَوْ أَنَّهَا مُحَارِبَةٌ وَيَقْتُلُونَ
الْكَلِمَاتِ فِي أَرْحَامِ الْقِرَاطِيسِ وَمَنْ عَلَى شَفَاهِ الْأَقْلَامِ.
وليس لأنّي بطلّةُ قصةِ عرجاءٍ وجئتُ من لعبةِ كيدِ النساءِ؛
ولكن لأنّي جدٌ واعيةٌ ومُدركةٌ لِرؤعاتِ القضاءِ ومؤمنّةٌ بالقدرِ؛ فرُبنا
كُتِبَ لَنَا مَصَائِرُنَا بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَدْ وَهَبَنِي بِالرَّغْمِ مِنْ نَشَاتِي
الْمُتَعَتِّرَةِ مَوْهَبَةً حَبِّ الْحَيَاةِ وَسَلَّخَنِي بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ. وَمَنْكَ، يَا مُرَبِّتِي
الْغَالِيَةَ، تَعَلَّمْتُ لُغَةَ الْإِبْدَاعِ وَمَنْ وَهَنَ مَوْلَدَتِي كَيْفَ أَكُونُ مُعْجَزَةً عَظِيمَةً
سَابِقَةً لِكُلِّ الْمُعْجَزَاتِ.

أَحْيَا وَحِيدَةً، لَا يَهْمُ؛ فَوَقْتِي مُزْدَحِمٌ بِأَوْرَاقٍ مِنْ كُلِّ الْأَلْوَانِ بِيضَاءَ
وَصَفْرَاءَ... انْسْجَامِي مَعَ حُرُوفِي يَجْعَلُنِي أَعْرِفُ عَلَى وَتْرِ الْإِحْسَاسِ
وَيَأْخُذُنِي إِلَى مَا فَوْقِ السَّحَابِ. وَلِذَلِكَ يَقِينِي أَنَّ الْخِيَالَ لَيْسَ هُرُوبًا بَلْ
هُوَ مَا نُحِبُّهُ أَنْ يَكُونَ وَمَا نَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَتَحَقَّقَ؛ فَالْمُسْتَحِيلُ فِيهِ مَمَكِنٌ
وَالْأَمْنِيَّاتُ حَدَائِقُ أَزْهَارٍ رَبِيعِيَّةٍ وَالْأَمَالُ نَسَمَاتٌ مُنْعِشَاتٌ فِي صَيْفٍ
لَا هَبٍ حَارٍّ.

وَمَنْ نَسَجَ خِيَالِي سَارُوي حِكَايَةَ حَسَنَاءٍ لَا تُشْبِهُ سَنْدِرِيلاً وَلَا هِي

شَهْرَدَادُ.

هي أنا في مرايا العُمَرِ المسجونِ في سراديبِ التَّقَالِيدِ الرَّعْثَاءِ
الوعثاءِ الباليةِ. من بين الأشجارِ كَانَتْ تَرْكُضُ وراءَ الفراشاتِ وتَجْمَعُ
الأزهارَ وتُعْنِي مع العصافيرِ وتُضْحِكُ بصوتِ عالٍ. هي البيضاءُ ولكن
ليست بيضاء التَّلَجِ، هي اللؤلؤةُ النَّاصعةُ التَّمِينَةُ حَلَّتْ عليها النَّعمَاتُ
واحتَرَقَتْ مِنْ حَوْلِهَا كُلِّ اللَّعنَاتِ. ليستُ بساحرةٍ ولكنها تمتطي عصاها
ولا تُشْبِهُ الأسطورةَ ولكن لا تُشْبِهُ إِلَّا ذاتها. كَبُرَتْ مع الهدوءِ ونَمَتْ مع
الطَّبِيعَةِ ملكةَ الحسنواتِ. وعندما رآها الأميرُ الشَّرِيرُ هامَ بِمِخْرَابِ
الْجَمَالِ ونَحَرَ كُلَّ ما فيه من إباءٍ وغُرورٍ وكِبْرِيَاءٍ. عاشَ معها أقدسَ
اللَّحْظَاتِ وعند لحظةِ الغُرُوبِ، انقَلَبَ على نفسه وصارَ الحيوانُ
المُفْتَرَسُ فحَاقَتْ منه وَقَضَلَتْ الانزواءَ ونادى في المدائنِ منادٍ يقولُ:
"مَنْ يَشْفِ الْمَلِكَةَ الحسنةَ تَكُنْ له عروسٌ وَيُنْصَبُ على مملكةِ
الْجَمَالِ"! وجاءَ الكثيرون ولم يُوفِّقْ للأمرِ أَحَدٌ ما، حتَّى كان يوماً حين
مَرَّ راعٍ من تحتِ نافذتها فَرَمَتْهُ برسائلِ امتنانٍ فقررَ خوضَ المعركةِ
وَدَخَلَ مُغْلِنًا اسمَ العِلاجِ وفي الحقيقةِ هو نفسه لا يعلمُ ما معنى الدَّواءِ.
قالَ لِلأهلِ: "أريدُها زوجًا وبعدَ الحَفْلِ أعيدُها وستكونُ بِشِفاءٍ تامٍ!".
أُقيمتُ الاحتفالاتُ بعُرسِ الملكةِ الخرساءِ على فقيرٍ راعيِ غَنَمٍ،
لا يَمْلِكُ حتَّى ثَمَنَ اللباسِ الَّذي ارتداهُ. ورَقَصَتْ وفَرِحَتْ وضَحِكَتْ

وعندما هَبَطَ المساءُ، رَجَعَ العقلُ إلى عَمَلِهِ يُقَرِّرُ الانسلاخَ وعادَتْ وكلُّها
عزْمٌ على أن تتركَ الأهلَ وتَهْرُبَ إلى الطَّبِيبِ وتحيا حياةَ الحبيبِ،
بعيدةً عن التَّعَبِ والعَلَلِ وكلِّ الصِّعَابِ.

فَوَقَعَ عن وجهِ الحبيبِ القناعُ؛ هو الجميلُ ابنِ الأصولِ لن تضيعَ أعمالُ
نواياها لآلئِ مكنونةً.

حقيقةً يجبُ علينا كتابتها فوقَ الشَّمْسِ لِتَشْرُقَ في أعماقنا كلَّ
الأيامِ نيةً سليمةً وعَمَلٌ صالحٌ، تعني حياةً طيبةً وأعمارًا هنيئةً.

صحيحٌ أني اخترتُ أسلوبَ ابنِ المُقَفَّعِ ولكن على لسانِ

الإنسانِ...

ولنْ تكونَ رسائلُ لسُكَّانِ القصورِ أو الحُكَّامِ بل لكلِّ امرئٍ يَدُبُّ فوقَ
التُّرابِ ويهوى العيشَ في الرَّحَابِ.

ولكلِّ مُشَكِّكٍ بِقُدْرَةِ الكلماتِ؛ فهي لن تفعلَ فِعْلَ السِّيفِ بل سَتَكُونُ
رصاصاتِ رَحْمَةٍ للأفكارِ التي تُدَمِّرُ وتسعى لِلخِرابِ.

لا يَلْزِمُنَا الحَقْدُ ولا يعنينا الحَسَدُ ولا نبغي الشَّرَّ، ولا نَطْلُبُ

الخُصوماتِ؛ سوفَ نبني الأحلامَ فقط ونُقيمُ الحياةَ ولو للحظاتٍ ولو

كان العُمُرُ ثوانٍ سَنَمُدُّه كي يكونَ أزمِنَةً من عوالمِ مُحاطةٍ بالسَّعادةِ

والسُّرورِ والهناهِ والحبورِ...

الأفراحُ لا تعني الكُفْرَ والرَّاحَةُ لن تكونَ الضَّلالَ. فالإنسانُ من
طينٍ والطينُ مُحْتَاجٌ دَوْمًا للارتواءِ وفي كلِّ حينٍ. لا تبخلوا على الدُّنيا
بأعمارٍ وأفراحِ الانسجامِ مع الذاتِ ورضا اللهِ ركائزُ للسَّيرِ إلى طريقِ
الجنانِ....

هلموا يا معشرَ النِّساءِ! بأيديكنَّ بيارقُ الانتصارِ على الذاتِ
وفي قلوبِكُنَّ عمائرُ الحبِّ وأواصرُ الانتماءِ إلى آدمٍ وحواءِ...
أيها الأدميُّ الغافلُ عن الظُّنونِ الحَسَنَةِ والمُتَّجِهَةِ دَوْمًا صوبَ
السَّيِّئِ منها والحاملُ رايةَ الغَباءِ وفي تصرفاتِكَ الحماقةُ، انتبهَ جيّدًا
لكلماتي. أنا لا يعنيني منك حُزُنُكَ ولا يُلزِمُنِي لفرحي ولا أعيرُ انتباهي
لوجَعِكَ؛ حيثُ أني لا أجد فيه شفائي: الأمرُ كُلُّهُ هو أنكَ بعقلِكَ الفارغِ
وقلبِكَ المسكونِ بالكُرهِ تَدعو على ابتسامتي وترفعُ الاتهاماتِ إلى سلامِ
ذاتي وتُعيرُنِي بهدوئي وِرصانةِ نفسي. كفاكَ تَهَجُّمًا! لقد كالتني الدُّنيا
مثلكَ همومًا وأكثرَ وجَرَحَتُنِي الأيامُ في صميمِ فؤادي وصَفَعَتُنِي الحياةُ
على وجهي مئاتِ المَرَّاتِ وأكثرَ، ولكنَّ واجهتُها كُلَّها بقوةٍ من اللهِ وإيمانٍ
كبيرٍ وتَخَطَّيْتُ مراحلَكَ التي تَتَخَبَّطُ فيها ووَصَلْتُ إلى هنا بصعوبةٍ
وتعبٍ ومع ذلكَ يلزِمُكَ سنونٌ ضوئيَّةٌ كي تمحوَ منك الحِقْدَ والحَسَدَ
وتُبعِدُ عنكَ الشَّرَّ والكُرهَ والغَضَبَ ونيرانَ الأبالسةِ والأنا القاتلةَ.

اتْرَكَ الْمَقْوَدَ لِمَنْ خَلَقَكَ، هُوَ سَوَّاكَ وَعَدَلَكَ وَأَنْتَ تُشَوِّهُ النَّعْمَ وَتُسَوِّدُ النَّهَارَ
وَتَعْشَقُ الظَّلَامَ.

الرِّزْقُ مَقْسُومٌ وَالْقَدْرُ مَحْتَمٌ؛ قَاعِدَتَانِ لَوْ تَسْتَوْعِبُهُمَا كُنْتِ تَعِيشُ الْيَوْمَ
بِشَكْلِ أَفْضَلِ.

فَمَا عِنْدِي مِنَ اللَّهِ وَمَا عِنْدَكَ أَيضًا وَسَوْفَ نُحَاسِبُ عَنْ كُلِّ بِنْتِ شَفَةِ
وَعَنْ كُلِّ نَبْضٍ وَعَنْ أَدْنَى عَمَلٍ. فَالْحَيَاةُ لَمْ تُقَدِّمْنَا لَنَا عَبَثًا؛ فَلَا تَسَلْ عَن
جَاهِي وَلَا مَالِي وَلَا عَن مَرْكَزِي وَأَسْمَالِي وَلَا عَن أَيِّ مَن تَفَاصِيلِ
حَيَاتِي، افْتَحْ كِتَابَكَ وَاقْرَأْهُ. كَفَى بِهِ لَكَ دُسْتُورًا وَمَنْهَجًا وَدَعِ النَّاسَ
وَحَيَاتَهُمْ فَكُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ.

وَمَا أَعْطَانِي رَبِّي لِيَأْخُذَ مِنْكَ وَلَا مَنَعَ عَنِّي لِيُعْطِيكَ؛ فَكُلُّ شَيْءٍ بِحِسَابِ
وَكَلَّنَا نُكَمِّلُ بَعْضُنَا الْبَعْضَ. ارْضَ بِنَصِيْبِكَ وَعِشْ بِقِسْمَتِكَ وَلَا تَنْهَشْ مَن
لَحُومِ الْبَشَرِ؛ فَالْحَوْمُ الْحَيَوَانَاتِ هِيَ فَقَطِ الْمُسَخَّرَةُ لَكَ وَلَا تَتَعَرَّضِ لِلنَّاسِ
إِذَا مَا عَارِضُوا هَوَاكَ أَوْ لَمْ يُوَافِقُوا رَغْبَاتِكَ؛ فَكَمَا عِنْدَكَ مَن حَبَّ الذَّاتِ
وَيَقْدِيرُهَا، هُمْ أَيضًا يَمْلِكُونَهَا. الْفَرْقُ أَنَّ هُنَاكَ مَن يُفَرُّ بِاخْتِلَافِ الْمَعَايِرِ
وَيُقَدِّمُ الْمَحَبَّةَ عَلَى كَافَةِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ هُنَاكَ مَن يَعْتَرِفُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ
عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْعَدْلُ فَلَا يَجِبُ أَنْ تُنَاقِشَ مَوْضِعَ الْأَرْزَاقِ
فِي الْمَادَةِ وَالرَّوْحِ وَلَوْ بَوْشُوشَاتٍ أَوْ حَتَّى هَمَسَاتٍ.

يا سيديتِي ويا حبيبتِي الغالية، كما رأيتِ وعَلِمْتِ وَأَيَّقَنْتِ أَتَكَ
مَلَكَتِ الكَثِيرَ من الجاهِ والمالِ والعزِّ وغمِّ عليكِ أهمُّ الأمورِ على
الاطلاقِ وهو ما سَأحاولُ بفضلِ اللهِ، يا أُمِّي ومرأتِي ونَفْسِي، أنْ أَنالَهُ.
أخْبَرْتِي قصةً لا تزالُ محفورةً في ذَهْنِي وفي وِجْدانِي وتَحْضُرُنِي كَلِّما
تُغَلِّتُ على ذاتِي الموازينُ ورَزَحَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ الأَتْعابِ والهمومِ. شَبَّهْتُ
حالَتَكَ بالإنسانِ الَّذِي وَجَدَ خاتِمَ سُلَيْمانَ الحَكِيمِ وظَهَرَ لَهُ العَفْرِيتُ
الكَبِيرُ والعَجيبُ، وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يُحَقِّقَ أَمْنِياتِهِ المُقَدَّسَةَ وهي: " الأولى
العِلْمُ النَّافِعُ، والثَّانِيَةُ الرَّجُلُ الغافلُ والثَّالِثَةُ الابْنَةُ البارَةُ".

ولقد تَحَقَّقَتْ كَلِّها؛ فقد نَلِيتِ أعلى المراتبِ والشَّهاداتِ وتَرَوَّجْتِ بوالدي
الَّذي تَغاضَى عن فارقِ العُمُرِ بينَكُما وكُنْتُ لِكِ الابْنَةِ المُرتَجاةِ.

وفي كلِّ أمرٍ لم تَرْضَ عنه نَفْسُكَ العَظِيمَةَ، كُنْتُ تَشعِرِينِ بأنَّ
هناك ما يُشَبِّهُ الفَرَاغَ الممتلئِ بلا حروفٍ أو سطورٍ، وهذا هو يا غالية
ما يُطلقون عليه راحةَ البالِ. لقد غُمَّتْ عَلَيْكَ وَعِشْتِ العِمْرَ تُفْتَشِينِ
عنها وتجاهدينِ للحصولِ عليها ولكنَّهُ القَدْرُ المحتومُ وإرادَةُ مَنْ وَخَدَهُ
يقولُ: كُنْ فيكونُ!.

نَلِيتُ مَعَكَ شَرَفَ الأُمومةِ وَعِشْتُ مَعَكَ أَجَمَلَ الأَيامِ وكُنْتُ في
كلِّ لحظةٍ أرى ذاكِ السَّرابِ الَّذِي كُنْتُ تَبْحَثِينِ عنه وتَسعِينِ للوصولِ

إليه. لا أجد ما أصف لك به استيائي، ولكن أعذك أتّي سأجده وسوف
أخبرك بذلك في حينه؛ فالوصول إليه مشقة والحصول عليه مكرمة.
لقد تغلبت على المساوي كلها وتغاضيت عن الشرور والمكائد جلها
وصممت آذاني عن البذاءة والحقارة دقها. وأعتقد أن الخطوة الأولى
بدأت بمصالحتي مع نفسي، متسلحة بإيجابيات جمّة من مذكراتك
ومواقفك وحزرك وقوة إيمانك. راحة البال، يا حبيبة، هي الهدف والسبيل
والرجاء والقيمة التي سأقف عليها. هل أكون مخطئة إذا ما قدّمت الطيبة
على مصلحتي وأفسحت المجال لحسنات النوايا أن يسبقن كل السجايا؟!
اعتقدت لوهلة أن الحياة ساحات وعى ومرّ في ذهني عصفت
من الجنون مفاده أنا مجرد أوراق في كتاب الدهر ولكن يقيني أننا خلقنا
كي نعيش وليس لنشقى ولنمير بين النار التي تدفئنا وبين تلك التي
تحرق، وبين الماء التي تروينا وبين السيل الجارف، وبين الهواء الذي
يُزكينا وبين العواصف، وبين التمر الذي يُشبعنا وبين الذي يُميتنا. هي
تلك النقطة التي تعطي رأس الخاء في خير وهي النقطة التي تكون في
جوف الجيم في الوجود، خير الوجود من وجد ضالته وجلس وقعد ونام
وسار وهو مُبتسم راضٍ في أعماق وجدانه، كنز لا يُقدر بأثمان ويفوق
حجم الأكوان؛ هو راحة البال ومفتاحها الرضا وعلاماتها سبع: العيون

الصَّامِتَةُ، والثَّغْرُ البِسَامُ، والحِشْمَةُ في الكلامِ، والأناقَةُ في الأسْمالِ،
والتَّواضَعُ للعِوَامِ، والوجهُ الحَسَنُ، والتَّقَى والعِغافُ.

كلَّها علاماتٌ لراحةٍ بالٍ تأخذنا إلى أَمَكِنَةٍ كَلِّها مُقَدَّساتٍ، وتُحِينا في
أزمنةٍ لا تَحْضَعُ لقوانينِ القِسْمَةِ: لا ليلٌ ولا تَقَلُّباتٌ نهاراتٍ ساطعةٍ
وأجواءً ساحرةً وخيرٌ كلماتٍ تنسابُ فوقَ ألسنةِ العِشاقِ. وَصَلْتُ يا
سيدةَ الحروفِ إلى هناكِ، كم تَمَنِّيْتُكَ وشوقِي يُهَدِّئُ من رُوعِ قلبي
ويُثَبِّتُنِي على قناعةٍ وَيَمْنَحُنِي الرِّضا والتُّبُولِ بما كَتَبَ لنا وما كانَ لنا
قضاءً وَقَدَّرَ.

سيدةُ قلبي ومملكةُ روحي وأمِّي طوعًا وحبًّا، لقد كان ما كان
وترَعَرَعْتُ في كَنَفِكَ وترَبَّيْتُ. ومنكِ اسْتَقَيْتُ لِحروفِي قطراتِ المطرِ
ورذاذِ الندى وشذا العطورِ وروائحِ الزَّهورِ، رَزَيْتُ لي سُطُوري وَمَنَحْتِنِي
القُوَّةَ والثَّباتِ وعزائمِ الأخلاقِ وأركانِ الحياةِ. قَرَأْتُكَ وَحَفَظْتُ كَلِمَاتِكَ
وَتَقَمَّمْتُ شَخْصِيَّتَكَ وَسَأَجْعَلُكَ، بفضلِ من اللهُ، تَنَعَمِينَ بِراحةِ البالِ
ولو كُنْتَ تحتَ الثَّرى؛ فالأرواحُ تتلاقى والمشاعرُ صناديقُ بريدٍ تَصِلُها
وتتَلَقَّى كلَّ إحساسٍ وتَسْمَعُ الهاتفَ وترى الأعمالَ وكلَّ ذلكِ رحمةً للعِبادِ
وتأكيدًا بأنَّ اللهُ الواحدُ هو العالمُ بكلِّ شيءٍ، لا يَخْفَى عليه أمرٌ ويُدَبَّرُ
لنا كلَّ أمورِ الحياةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ها أنا أحاورك ولو بعد رحيلك. أناقشك ولو عن غياب،
وتحضرين كلَّ أجوائِ المُجتمعةِ والمُفردةِ.

وليس سرًّا ولا لغزًا إذا ما قلتُ أنكِ لا تزالين تدعمين قوتي وتُحيطيني
برضائكِ، رَحِمَكِ اللهُ. في لحظةٍ ضُغفِ بشريّ، أنكَمِشُ على نفسي
وأتمنى لو أنكِ معي هناك ولكن سبقَ القلمُ وسَطَرَ المصيرَ وكان الفراقَ.
وفي المقلبِ الآخرِ، كانت الصدمةُ عظيمةً على سامي: لقد مرَّ
في خياله كلَّ الأمورِ: صَعَبُها وشاقَّها، ولم يخطرَ على باله أن يكونَ
ابن زنا وأن يكونَ في كنفِ عائلةٍ غريبةٍ عنه ويتعمَّ بخيراتِ والدٍ ليس
من أصولِهِ ولا تربطُهُ به صلةُ الرَّحمِ ولا الدَّمِ، فقط التربيَةُ والأبوةُ المُرورةُ
والإنسانيَّةُ المزيَّفَةُ هي العواملُ التي تجمعُ سامي بعائلته وتجعله منتمياً
لها. هل تعلمينَ يا صاحبتِي في الألمِ ورفيقتِي في الحُزنِ أنِّي لستُ
مُستاءً ولكن لم أتوقَّع أن أكونَ ابنَ حرامٍ، ابنَ امرأةٍ ساقطةٍ وابنَ رجلٍ
فاقدِ الضميرِ والدينِ.

- هَوْنٌ عليكِ، يا سامي! الحمد لله أنتِ عَرَفْتِ الآنَ وأنتِ تَعْمَلُ
ولكَ مؤسسةٌ وعندك ما يكفي من الجاهِ والمالِ والعِزِّ.

- كلُّه لا يساوي وخزةُ ألمٍ ولا يَعْدِلُ نظرةٌ ذلٍّ من عيونِ تُحاسبُ

الضحيةً وتعفو عن المجرمِ!

- اسمعني، أنا معك هنا ومصيرنا سواء.
- لا يا لوليا، أنت تعرفين أهلك، أما أنا فلا! أين هي تلك الغانيةُ الفاسقةُ والتي أَمَعَنْتُ في الغلطِ مراتٍ: مرةً عندما حَمَلْتُ بي ومرةً عندما رَمَتْنِي لا بل باعْتَنِي وبالمالِ !!! وأَجْهَشَ سامي، الرَّجُلُ الشَّابُّ الوَقُورُ الحَنُونُ المتباهي بالبكاء.
- يا عيون أختِك! نعم أختُك وكلنا عائلتُك رَغَمَ أنوفِهِم جميعاً، هكذا هو القَدْرُ وهذا هو القَلَمُ الَّذِي سَبَقْنَا وَكُتِبَ لَنَا وَعَلَيْنَا. الحمد لله.
- الحمد لله ولكن...
- امثل بي! سامي، أنا تعاملتُ مع الوضعِ بإيجابيةٍ وتركتُ المُحاسبةَ وحتى المعاتبةَ.
- نعم، نعم، أنتِ قُدُوتِي وأنتِ كبيرتي ولو كنا توأمًا.
- إذن عُدْ إلى حياتِك، أكملِها، حاربِ الفِسوقَ والفجورَ، واجمعِ نَقَمَتَكَ على الفَقْرِ والجَهْلِ وساعدِ كلَّ ذي حاجةٍ، عسانا نكونُ اليمينَ التي تُزِيلُ الوَجَعَ وتَمسُحُ الحُزْنَ وتأخُذُ بأيدي الضَّعفاءِ والمساكينِ وذوي الحاجةِ.
- سَأَتْرُكُ المنزلَ وأعيدُ المالَ لأخواتي، لَكِنَّ قَصَدْتُ.

- ههههه! المالُ يا أخي، دَعُهْ معَكَ واجمَعِ البناتِ وَكُنْ خَيْرَ سَنَدٍ لهن وهذه أولُ صَفْعَةٍ لِكُلِّ مَنْ جَعَلَكَ تَتَأَلَّمُ.
- معَكَ حَقٌّ لولوة، ومع ذلك سأعملُ وبمالي الخاصِ ومالُكُنْ لَكُنْ.
- لن نناقشَ هذا الآن، المهمُّ أَنَّكَ ستكونُ بخيرٍ وستبقى لي الأَخَ الحبيبَ الشَّقِيَّ وسأفرحُ منكَ ونُرَبِّي أولادَكَ معًا.
- لا أعلمُ ولسْتُ مُتَأَكِّدًا؛ فأنا لا أَرْغَبُ في أن أُحَمَلَ إنسانًا، كما حَمَلُونِي، وَزَرَ أفعالٍ شَنِيعَةٍ لا ناقةَ لي بها ولا جمل.
- اتقنا، اتقنا! حبيبي ارتحِ قليلاً ونَمِّ والغدُّ يومٌ جديدٌ وإن شاءَ اللهُ تكونُ بدايتهُ مختلفةً وجيدةً لنا جميعًا، وخاصةً لي ولكَ أخي سامي.

(البنات):

- هل نام سامي؟
- نعم، نام.
- أتمنى عليكِ جميعًا أن يبقى الموضوعُ سرًّا فيما بيننا، كرامةً لسامي ولوالدَيْنا وحتى لا نُؤذي أخانا أكثرَ ونُصْبِحُ مضغَّةً على كَلِّ الألسنة؛ تلوكنَا في الباطلِ والحقِّ وكلاهما لا نريده يا شقيقتي.

- نعم لوليا، طبعًا لا علاقة لأحدٍ بالموضوع ولا حتى أزواجنا أو أولادنا.

- سأنصرفُ وأعودُ المجيء غداً، لنرى ماذا سيفعلُ سامي ونكونُ جميعنا معه. السّلام عليكِ وبأمانِ الله، أراكنِ غداً.

كم أحتاجُكِ يا سيّدة النّساءِ الآن! ماذا عساني أفعلُ مع مشكلةِ

سامي وكيف أكونُ له عونًا وسندًا؟

احترتُ في الحقيقةِ وأنا من طَبْعِي ألاً أجامِلَ في أمورٍ صعبةٍ ومؤدّيّةٍ، وأقولُها كما هي: هو ابنُ حرامٍ والعيادُ بالله ولكن ما ذَنْبُهُ؟!...

نَهَضَ سامي مُتَجَهِّمًا ووضَبَ حَقِيْبَتَهُ، تَرَكَ رسالةً لشقيقاتِهِ

وغادَرَ المنزلَ، واستقرَّ مؤقتًا في فُنْدُقٍ ريشما يَجِدُ له مسكنًا جديدًا.

وابتعدَ... وصارَ من رُوادِ الملاهي اللَّيْلِيَّةِ والأمكنةِ التي بسببِها وُلِدَ

وبيعَ...

ورافقَ بناتِ اللَّيْلِ وحاولَ أن يُفْتِشَ عليها؛ ليس حبًّا فيها أو شوقًا ولكن

ليرى تلك التي باعتهُ بحِفْنَةٍ من المالِ...

هو الخلوْقُ وصاحبُ الدّينِ، تَغَيَّرَ وانغمَسَ في الرّذيلةِ، وتواجدَ

كثيرًا في بيوتِها ومحلاتِها؛ ليس حبًّا في مُجونٍ ولكن هو جنونُ النّقمةِ

والبحثُ عن مَنْ حَمَلَتْهُ وجَعَلَتْهُ ابنَ زانيةٍ. وَحَمَلَتْهُ بصمةِ العارِ، وإن لم

يعلم الآخرون بها أو يرونها بشكلٍ واضحٍ؛ فهي راسخةٌ وبعمقٍ بينه وبين ذاته.

ابتعدَ وقرَّرَ بعد حينٍ إنشاءَ منزلٍ للمزميينَ والمهمَّشينَ واللَّقَّطَاءِ أمثاله. بكلِّ قَهْرٍ وعزيمةٍ، نوى ونقَّذَ وكان يدعو كلَّ مَنْ يَجِدُهُ في الشَّارعِ نائمًا ومُتَشَرِّدًا، ليحيا حياةً كريمةً في دارٍ للمُحتاجينَ. واجتمعَ في تلكِ الدَّارِ الطِّفْلُ البائِعُ المُتَجَوِّلُ، والشَّابُّ المُدْمِنُ، والرَّجُلُ المَطْرُودُ من بيتهِ وعائلتهِ وكثيرٌ من حالاتٍ تُدْمِي القلوبَ وتُبْكي العيونَ...

هذا العجوزُ كانَ يَفْتَرِشُ الرِّصيفَ، ويُنْقَتات من الزَّبالَةِ ولَمَّا رَأَيْتُهُ وَسَطَ النَّهَارِ وفي عَزِّ الصِّيفِ كأنه جيفةٌ عليها الذُّبابُ والحَشْرَاتُ وَيُعْطِي جَسَدَهُ الهالكِ بوزقِ الجرائدِ والأكياسِ الفارغةِ. لم يكن سهلًا عليَّ إقناعه بالمجيءِ معي؛ فهو بلا هويةٍ ولا يَعْلَمُ عن نفسه شيئًا، وليس مُسْتَعِدًّا لِلتَّعَرُّفِ على عائلتهِ. في شعوره الباطنِ قساوةٌ ورفضٌ؛ لقد كالوه حُزْنًا وألَمًا ووجعًا، طَرَدوه من مَنْزِلِهِ. نعم طَرَدَ وبكلِّ وقاحةٍ يُرَدِّدون ذلك: عندما عَمَمَتِ القوى الأُمْنِيَّةُ صورتَهُ، جاؤوا لا ليأخذوه بل لِيُوقِعُوا على مُسْتنداتٍ دُخُولِهِ إلى المَرْكَزِ. وهكذا صارَ نَظيفًا، معافىً، نهتمُّ به بسعادتهِ؛ فاعتمادي هنا، يا شقيقةً لم يلدها

أبواي، على شعورهم جميعًا بالسعادة. هذا الذي خَرِبَشَ الزَّمانُ وشِدَّتُهُ
على وَجْهِه فجعلهُ مُتَعَرِّجًا ومُسَوِّدًا وأجوفًا؛ فصار مُرتاحًا يبتسمُ
ويضحكُ ويَنعَمُ بقليلٍ من رَعْدِ العيشِ. يلعبون الورقَ ويشاهدون التَّفازَ،
ويَتَبَارون بالطَّولةِ، ويُصَلُّون ويفرحون ويجلسون في الحديقةِ يتسامرون.
لقد تَحَوَّلَتْ حياتُهُم إلى استقرارٍ وراحةٍ نَفْسِيَّةٍ والحمد لله.

يروى هذا الرَّجُلُ كلَّ الاهاناتِ التي تلقَّاهَا من ذوي الصِّلةِ
والرَّحِمِ: مَنْ كان مفروضٌ عليهم خَفَضَ جناحَ الدُّلِّ من الرَّحمةِ وأن
يذكروا كيف ربَّاهم وهم صِغارٌ... كيف كان يُطْرَدُ ويَجوعُ ويُهَانُ، كيف
كان يُشْتَمُ ويُسَبُّ ويُعَذَّبُ... إلى أن يبلُغَ الظُّمُّ نهايتَهُ فيُمنَعونَ في قَطْعِ
كلِّ أواسِرِ الثُّرْبِيِّ وعاملوهُ على أَنَّهُ مُجْرِمٌ. عُمُرٌ بَلَغَهُ عِتْيًا وتمادى
الخَرْفُ فيه إلى حدِّ جَعَلَهُم يَفْقُدونَ أهليَّةَ التَّعامُلِ معه. مُرَهَفُ الإحساسِ،
عيناه تحكيانِ قِصَصِ الوَجَعِ والوحدَةِ والحِرْمانِ وعلى لسانِهِ الذِّكْرُ
والدَّعاءُ والصَّلاةُ. ممنونٌ من أقلِّ شيءٍ تُقدِّمُهُ له حتَّى ولو كان حبةً
صغيرةً أو كأسَ ماءٍ. فيه أشياءٌ إذا ما نَطَقَ بها هَزَّتِ الجِبَالَ وفاصَّتِ
البِحارُ وأمطَرَتِ السَّماءُ حجارةً من شدَّةِ النِّقْمَةِ التي حَمَلوه إياها عن
قَصْدٍ أو عن غيرِ قَصْدٍ. وها هو اليومَ، رجلٌ عجوزٌ، فكاهيُّ المزاجِ،
ومُرتاحُ البالِ والمواييلُ والدَّلْعونَةُ والأهازيجُ له رفاقٌ.

اضحكي معي يا لوليا؛ فهو دومًا ما يسألني: " كيف تكون المياه ساخنةً وتتحولُ بثانيةٍ إلى باردةٍ مُثلجةً؟! هل هناك سحرٌ؟ أم شيخٌ يقرأ على الفُنجانِ؟! " وأضحكُ ويضحكُ ونقّهتهُ معًا ونشربُ. ومن أحدى لحظاتي تلك التي أمرُّ بها على مضجعه، أسايرهُ وأحاديثه وأتلمسُ البركةَ من فُبلّةٍ فوق جبينه أو من ضمِّ يميني على يمينه أو عناقٍ يحتاجُه لِيَسْتَمِدَّ منه المحبةَ والأمانَ...

شكرًا أختي، لقد وجّهتني إلى هذا العملِ الذي به اكتملت مسيرتي الإنسانية وحققتُ وأحققُ كلَّ أمنيةٍ وأزِيلُ كلَّ النقماتِ فأحوّلها إلى نعمةٍ التّفكّرِ في كلِّ حالةٍ أسوأ مني ومن قَدري يا عزيزتي!

العجوزُ يُمثّلُ المرأةَ التي ينعكسُ داخلها والدي وأصِرَّ على رؤيةِ وجهه برفاقًا ولامعًا وخالٍ من كلِّ عيبٍ وعلى جبينه وقارٌ وفوق سِحْنَتِهِ هَيْبَةٌ وجمالٌ. نعم، هو والدي الذي فقَدْتُهُ ، هو والدي الذي رمانني حتى دون أن يَعْلَمَ بوجودي. أختي التي تَعَلَّمْتُ منها كيفَ أواجهُ السَّوادَ وكيفَ أطفئُ النَّارَ وكيفَ أكونُ إنسانًا بارًا...

أنتِ لي سَنَدٌ وأعدكُ أنني سأكونُ لكِ وِجاءً؛ فلا تحرميني من طَلَتِكَ ومن حُضورِكَ ومن آرائِكَ ومن نصيحتِكَ. يا حبيبتِي، معكِ الحياةُ جميلةٌ وغاليةٌ وسنبقى مُجتَمعين مع شقيقاتكِ وشقيقتي على الحبِّ والتعاونِ

والصّلاحِ والفلاحِ، مُحاطينَ برضا الله وبركتهِ ومُجَلِّلينَ بأثوابِ السّعادةِ والأملِ.

العمّ ابراهيم مشكلتهُ مختلفةٌ: هو إنسانٌ ثريٌّ ولكنّه غيرُ محبوبٍ ويقضي نهاراته هاربًا بين الشّوارعِ وجالسًا على الأرصفةِ وإذا أعطاه أحدٌ صدقةً، يصرُخُ به قائلاً: " معي من المالِ ما يكفي بلادًا ولكنهم طمّاعون ويريدون أن يرثوني وأنا على قيد الحياة! لم يعدّ بهم صبرٌ ويحاولون إيذائي ووصفي بالجنونِ. صحيحٌ أنّي كبرتُ وأنّ العقلَ بدأ يَصغُرُ ولكنّي مكتفٍ ولا أعوزهم؛ فهم خبيثون يريدون المالَ والأموالَ ثمّ بعدها سيرمون بي. هكذا هم بلا ضميرٍ، فكيف أتركُ مالي لهم؟! لقد أوصيتُ به كلّهُ إلى المؤسّساتِ الخيريّةِ بعد موتي وتسديدِ مصاريفِ دفني"... وها هو الآخرُ ينعُمُ ويسعدُ مع رفاقه في الدّارِ، بلا خوفٍ ولا تشرّدٍ أو فرَعٍ من أحدٍ.

وأكثرُ مَنْ علّمَ في نفسي هذا الرّجلُ العِصاميُّ الذي كافحَ ليبري أولادهُ ويجمعُ ثروتهُ، فحذلهُ الأبناءُ وكرههُ الأحفادُ لأنّه حرّمهم من الإرثِ بعد أفعالهم الشّنيعةِ والبشعةِ التي قاموا بها، من إهمالهِ وضرّبهِ وتغنيفهِ وإلحاقِ صفةِ الجنونِ به. وما زالوا في المحاكم يصرُخون! وهو معنا مرّتاً حُ البالِ والضميرِ.

والحالة الثالثة، طفلٌ بائعٌ مُتجولٌ، انتشَلَتْهُ من براثنِ عِصَابَةٍ
استغَلَّتْ فُقْدَانَهُ لوالديه في الحَرْبِ السُّورِيَّةِ، وانتَهَكَتْ كلَّ الحُرْمَاتِ من
تُعْنِيْفٍ واعتدائٍ وتَشْوِيهِ لبراءتِهِ واستغلالٍ لطفولتِهِ. عملنا على تحسين
حالته النفسية؛ فقامَ بنشاطاتٍ عدَّةٍ وتمارينَ نفسيةٍ وجسديةٍ حتى استطاعَ
الاندماجَ في المدرسة مع البقية.

وجاءَ هنا يحتمي من غَدْرِ النَّاسِ ولؤمِ الظَّالِمِينَ.

وإزدادَ عددُ الحالاتِ وكَبُرَتِ المؤسسةُ بقاطنيها، وصارَ هذا
المكانَ بحقِّ المكانِ الذي أواسي فيه نفسي من حُرْقَةِ البلاءِ وَأَصْبِرُ فيه
على مصابي وأنعمُ بإنسانيتي وأهزأُ بكلِّ مُرتكِبٍ للفاحشةِ، بشتى صفاتها
الماديةِ والمعنويةِ.

تلكَ أقدارنا تَجْعَلُنَا نَسِيرُ على الصِّراطِ ونختارُ إمَّا اتجاهَ اليمينِ
أو اليسارِ؛ فلا ثالثَ للقرارِ. وأنا وأنتِ اختارَ لنا اللهُ أن نكونَ شركاءَ
في الوجعِ وفي الخيرِ على السَّواءِ.

أريدُكَ فارسًا بطلًا وبكلِّ المعاركِ مُنتَصِرًا. ولمَ لا وحصانُكَ
أصيلٌ وسيفُكَ مُرَصَّعٌ والتَّرسُ مُحَصَّنٌ، وأعداؤُكَ يصبحونَ أنصارًا،
والسَّاحاتُ لكِ تَتَرَيْنِ. أريدُكَ لسانًا عَرَبِيًّا قويمًا ومُبينًا؛ تَقْرَأُ وتُنشِدُ وتُرتلُ
وتتلو الأحاديثَ وتحكي القِصصَ وتروي الحكايا.

أرِيدُكَ عَيْنِيَّ وَنَظْرَاتِهِمَا، فَمَدَادُ الْأَلْوَانِ مَعَكَ يَزْهُو وَيَتَلَأَلُ، وَأَقْرُكَ
أَذَانًا تُنْصِتُ لِلْهَمْسَاتِ وَتَجْعَلُ الصَّرَاخَ كَلَامًا لَانْتِقَا. أَرِيدُكَ عِطْرًا يَفُوحُ
فِي ذَاتِي سِحْرًا وَعَبَقًا وَرَوَائِحَ زَكِيَّةً.

أَرِيدُ قَلَمًا يَخْطُ نَبْضَاتِ وَتَيْنِ الْقَلْبِ فَوْقَ شَرَايِينِ الرُّوحِ، وَيَنْثُرُ
فِي الْأَمْكَنَةِ الْمِسْكَ وَالنَّخُورَ، وَيَزِيدُ فُرَّةَ الْعَيْنِ رَقْرَقَةً وَعَذُوبَةً، وَيَرْسُمُ الْفَرْحَ
عَلَى الْمَلَأِ، وَيَنْثُرُ رِزَادًا دُوَاتِهِ فَوْقَ الْوَجْهِ ابْتِسَامَاتٍ وَحَبًّا وَشَوْقًا
وَحُبُورًا....

مِنْكَ وَإِلَيْكَ صَبَاحَاتٌ مُشْرِقَةٌ تُحَدِّقُ الْأَلْوَانَ وَتَجْعَلُ الْبَيَاضَ نَقِيًّا نَاصِعًا،
حَتَّى كَأَنَّكَ الشَّمْسُ أَمَامِي، تُبْهِرُنِي شَعَاعَاتٍ وَأَنْوَارًا!

وَأَنَا يَا أُخْتِي الْعَزِيْزَةَ، رَاحَتْ حَوَاسِي إِلَى وَطَنِ الْحُرُوفِ كِي
تَطْلُبُ اللَّجُوءَ وَتَتَالِ شَرَفَ الْبِقَاءِ.

تَدْرِبْتُ عَلَى لُغَةِ الْحَبِّ وَنَطَقْتُ بِلُغَاتِ الشُّوقِ وَالْحَنِينِ وَحَمَلْتُ جَوَازَ
عُبُورٍ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ الْمُحْتَرَمِينَ.

تِلْكَ صَلَاتِي، تَنْزُهُ سَطُورِي مِنْ كَلِمَاتِ الضَّلَالَةِ وَالْغَضَبِ وَتَرْفُقُهَا
وَتَقْخِمُهَا لِتَكُونَ بِيضَاءً بِأَجْنَحَةِ مَلَائِكِيَّةٍ.

أنت الذي تقرأ أبجديتي لا تسقط منها حركة ولا حتى سكون؛ فالصمت
معي ثرثرة واللسان فصيح، أما قلبي فهو الرسول الأمين.
خذ بنظراتي وإليك مسمعي ومعهما نعيي وشقوتي وعيدي
نبضات وكثير ومضات؛ يلزمك منهم الغزير كي تسقي تربة قصيدتك
الجافة ولتروي زهور خيالك اليابسة. معي كنوز لا تنتهي، وبحوزتي
ينابيع لا تختفي، تلزمني هوية فقط كي أجاهر بوطنيتي وأعلن انتمائي
إلى عالم، أخاف أن يُكِرني ويدعو علي ويسلبني منزلي وشرفتي،
هوائي وأوراق. وطن التراب، أنت لي كون ومداد بكل لون وسحر
وروعة وجمال؛ فلا تكلي إلى سارق ولا إلى مارق ولا عابث أومحتل،
أريدك لي ملاذاً ومقراً.

أحبك أعواماً من الخيرات وثورات من الأفكار وحروباً على
الخراب والدمار وأحبك حدائق وبساتين، شوارع وضيعة ومدناً، وأبنيّة
وأناساً طيبين. أعشقت بنايك الطيبين، وأهواك من الأزل ومع أنك تحتل
فؤادي؛ فأنا لا زلت أحمل صفة اللجوء، إليك يا وطن التراب والنجوم.
تعال معي يا أخي، لنستعدّ حقوقنا من زماننا، نسير بين الشجر،
نتشق عطر الزهر ونرتوي من مياه عذبة ونتناول ثماراً لذيذة، ونغسل
وجوهنا بقرّة أعيننا، ونزيّن أنفسنا بنبضات قلوبنا، ونبني إنسانيتنا من

الطَّيْنِ وَنُعْطِيهَا الْأَخْلَاقَ وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةَ، وَنَهْدِي الْقَرَارَاتِ الرَّشِيدَةَ
وَالْأَرَءَ السَّدِيدَةَ. نُبَيِّضُ الْأَيَّامَ وَنُقَدِّمُ الرُّوحَانِيَّاتِ عَلَى الْمَادِيَّاتِ، وَلِنَنْظُرَ
إِلَى فَوْقِ دَائِمًا وَنَقْفُ فَوْقَ التَّرَابِ بِثَبَاتٍ. نُوزِّعُ الْكِرَامَاتِ وَالْإِبْتِسَامَاتِ
وَالْبِشَارَاتِ وَهَكَذَا نَعْلِبُ الصَّعُوبَاتِ وَنُمَهِّدُ الْحَيَاةَ لِلْأَجْيَالِ.

ويجيبُ سامي شقيقته الرُّوحِيَّةَ وتوأمه:

" يَلْزَمُنِي بَضْعُهُ أَوْرَاقٍ وَقَلَمٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْحُرُوفِ وَأَبْجَدِيَّةُ الْعَشَّاقِ
كِي أَنْجِرَ أَحْلَامِي وَأَوْجَرَ مَشَاعِرِي، وَعَمِيقٌ مِنْ كَبْرِيَاءِ أَنْثَى وَعَظِيمٌ مِنْ
عُنْفَوَانِ الشَّبَابِ وَغَزِيرٌ مِنْ حُكْمِ الزَّمَانِ. فِي الْبَدءِ، كُنْتُ رِيشَةً تَتَمَائِلُ
وَتَمِيلُ فَوْقَ السَّطُورِ الْعِجَافِ وَتَابَعْتُ الْمَسِيرَةَ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى قَلَمٍ
مَدَادُهُ قَلْبٌ وَعَرْشُهُ اللَّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، وَهُوَ السَّلْطَانُ ذُو التَّاجِ الْمُرْصَعِ
بِنَوَاصِعِ الْكَلِمَاتِ، وَالصَّوْلَجَانُ الْمَرْفُوعُ أَمَامَ رَعِيَّةٍ مِنَ الْأَحْلَامِ.
وَلِمَنْ الْحُبُّ يَا تُرَى يَكُونُ؟! وَالهُوَى أَسْطُورَةٌ مِنْ تَارِيخِ الْعِبَارَاتِ
وَمِنْ مَوْسُوعَاتِ مُرَادِفَاتِ الْعَشَّاقِ.

وَالْجَمَالُ يَلِيقُ بِسَحَابَاتِ الرَّبِيعِ وَالْحَضُورِ لِأَنَاقَةِ يَنَابِيعِ تَنْفَجَّرُ بَعْدَ ذُوبَانِ
التَّلُوجِ، وَالشَّعْرُ مَحْصُورٌ بِلِسَانِ شَاعِرٍ لَا يُشْبَهُ الْجَاهِلِيِّينَ وَلَا النَّهْضَةَ
وَلَا مَا بَيْنَهُمَا، هُوَ يُنْشِدُ قِصَائِدًا دُونَ قَوَافٍ أَوْ أَوْزَانٍ، مِنْ غَيْرِ قِيُودٍ أَوْ
أَغْلَالٍ؛ يَنْطَلِقُ فِي سَوْقِ السَّامِقَاتِ التَّائِرَاتِ...

يا أوراقُ تتأثرتُ هنا وهناكِ وهناكِ، وعليها مغامراتٌ وحكاياتٌ
وأغازٌ بعنوانٍ بلا ألوانٍ وفي ساحاتِ الإلقاءِ والإنشادِ وميادينِ الإلهامِ،
والإبداعِ تنطلقُ دعواتٌ وتُطلقُ الادّعاءاتُ وتتوالى جُملاً مُتحرّكةً، تدبُّ
فوقَ الألسنةِ ويصِلُ صداها إلى الأعالي وفي الأعماقِ وفي كلِّ
الجهاتِ.

لقد سَقَطَتِ المفاعيلُ والفَعولُنُ وحَلَّتِ الرّوحُ في الكلماتِ وصارتِ
الحواسُ لواقِطُ والوجدانُ ناشراً للمحبةِ والمديحِ والغزلِ والفخرِ
والانطلاقِ....

نَسَماتٌ تَحْرُقُ الجدرانَ وتَعْبُرُ القاراتِ وتُلامِسُ وجوهَ الحِسانِ.
تَنقُلُ للعيونِ كحلاً يوسِّعُ مداها ويُنقِّي شذاها ويَجْمَعُ بين قرةِ العينِ ونَبْضِ
الحَرْفِ برابطٍ مُقدَّسٍ وشهادةِ الأشجارِ. تَحُطُّ على أغصانِ العُقولِ أفكارٌ
وأحلامٌ، وتُزْفِرُ نثرًا فوقَ آذانِ الطَّبِيعَةِ تُسْمِعُ صَمَمَ البشاعةِ وتُلغِي
سكونَ الجمادِ. ولذلكِ يلزَمُنِي عمرٌ طويلٌ مع راحةِ البالِ، لأتِمَّ رسالتي
ولأحَقِّقَ وجودي وأنتصرُ على الهزيمةِ، وأُعلِنُ نهايةَ إعجازِ من وطنِ
السَّلامِ.!"

وتَرَدُّ لوليا قائلةً:

" لاقينُ استحسانَ حِسانٍ وكُرمُتُ بمقامٍ رفيعٍ، ولا تزالُ حروفي
محابرَ مدادها بحورٌ، ولا تزالُ أقلامي من خشبِ الأرزِ أَرُصُفُ بها
السَّطُورَ، فَنُنَبِّتُ كلماتٍ لا تُشَبِّهُها كلماتٍ: للحبِّ، للوطنِ، والأمِّ والأبِّ،
وللأخِ وذوي القُربى من صلواتِ الدِّمِ والروحِ والجمالِ والحياةِ... "

فيا كلَّ الحياةِ، أرفدوني بغزيرِ أفكارِ حالمةٍ وخياليةٍ وعديدِ كُتُبِ
وموسوعاتِ روائيةٍ؛ فبالقلبِ قدرةً تَعْلُبُ كلَّ حجارةِ الأرضِ وحديدِها
وتُفَتِّتُ القاسيَ وتَصْهُرُ الجَمادَ. الكلمةُ الطيبةُ، والابتسامَةُ الجميلةُ،
والنَّفْسُ الأَمارةُ بالخيرِ، كلُّها سِماتٌ تَجْعَلُ من قَلَمي قلبًا يَنْبِضُ للبناءِ
والعُرسِ، والعِلْمِ والازدهارِ، الرِّقيِّ والسِّمو والانطلاقِ.

اغزُ يا قلمُ أوراقِي الخريفيةَ، لَوْنُها بألوانِ الطَّيفِ واجعلِ الأصفرَ
أقلَّها ظهورًا، لا يَنْفَعُ مع الإقدامِ ركائزُ من وَهَنٍ، أو أعمدةٌ من وَهْمٍ.
تَمَلِّكُ يا قلمُ أن تَجْعَلَ المستحيلَ هَيِّئًا والصَّعبَ مقبولًا، وأن تضيءَ
الليالي الحالكاتِ وأن تُحوِّلَ زائرتي الغائكاتِ إلى أميراتِ. وما تلكِ إلا
يميني أخطُّ بأناملِها اللؤلؤيةِ وحروفُها الماسيةُ لا تَصْدَأُ ولا تختفي ولا
تندثرُ ولا تختفي. هي الرُّوعةُ التي تُنشدُ والأمامُ المُرتجى والزَّمَنُ المُتجدِّدُ

والأمكنة السّاحرة. وِخْدَتِي زِحَامُ كَلِمَاتٍ وَهَدْوَي حِفْنَةُ التّزَامَاتِ وَسُكُونِي
غَالِبًا مَا يَكُونُ حَرَكَاتٍ ...

تِرَانِيمُ ذِكْرِيَاتٍ وَنَعْمَاتُ حَنِينٍ وَمُوسِيقَى لِفَرَحِ الْحَقِيقِيِّ: الْفِعْلُ
وَالْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ. لِي وَلَكَ وَلِلْجَمِيعِ. ...

وَيَجِيبُ سَامِي لَوْلِيَا قَائِلًا: " يَجُولُ فِي خَاطِرْتِي أَفْكَارٌ مُوجِعَةٌ
وَتَلْحُ عَلَى وَجْدَانِي أَسْئَلَةٌ صَعِبَةٌ،

وَمِنْ تِلْكَ الْأَفْكَارِ وَالْأَسْئَلَةِ جُمْلَةٌ تَتَّصَدَّرُ بِيَانِي وَهِيَ: " لِمَاذَا أَكْتُبُ وَلِمَنْ
وَأَمْتِي تَفْتَتُّ وَصَارَتْ لُغْتُهَا لَهْجَاتٍ مُصْطَنَعَةً وَطَلَّابُ الْعِلْمِ فِيهَا
مُتَشَبِّهُونَ بِالْفَرَنْجَةِ؛ بِالسَّنْتِيمِ الْعُوجَاءِ وَكِتَابَاتِهِمُ الْعُرْجَاءِ؟ وَمَا النَّفْعُ مِنْ
الْكَلِمَاتِ وَالْجَوْعُ مُنْتَشِرٌ وَالْجَهْلُ مُنْقَشٍ وَالْحُرُوبُ قَائِمَةٌ؟! وَعِنْدَمَا طُلِبَ
مَنِي الْمَشَارِكَةُ فِي مَوْقِعِكُمْ الْأَعْرَ، رَدَدْتُ عَلَى أَبْجِدِيَّتِي وَفِي عُنُقِ دُوَاتِي
مَا هُوَ آتٍ: سَأَكْتُبُ وَأُظَلُّ أَكْتُبُ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ اِبْدَاعًا؛ فَالِإِبْدَاعُ هُوَ أَنْ نُنِيرَ
شَمْعَةً فِي ظُلُمَاتِ عَقُولٍ تَنْشَأُ. وَالِإِبْدَاعُ هُوَ أَنْ نَمْسَحَ دَمْعَةً مِنْ عَلَى
وَجَنَةِ طِفْلِ يَفْرَعُ، وَالِإِبْدَاعُ أَنْ نَكْتُبَ وَنَعْمَلَ وَإِلَّا فَكَلِمَاتِي هَبَاءٌ وَأَعْمَالِي،
عَفْوًا مِنْ نَفْسِي، لَا تَعْدُو نُبَاحًا أَوْ مَوَاءً أَوْ عَوَاءً وَلَا تَرْقَى حَتَّى إِلَى
الرَّئِيرِ ...

وفي القلم نَبْضٌ وفي القلبِ حروفٌ، مُتلازِمَةٌ تسطُرُ الكلماتِ بنغماتٍ
رائعةٍ ومعانٍ طيبةٍ. ولذلك أَكْتُبُ الحُبَّ والكلُّ مُتَعَطِّشٌ، ولذلك أرسُمُ
العِشْقَ والجميعُ ينتظرُ. وأنشدُ الهوى قصيدةً على بحرِ الوِدِّ وعلى قافيةِ
الوردِ.

يا ذاك الشَّهْمُ الفارسُ، أريدُكَ على فرسٍ بيضاءٍ قادمًا، وأتمنَّاكَ بردائِكَ
القَضْفاضِ، مُختالًا ومعك الفَخْرُ والعِزُّ وسيفُكَ شاهراً شريقي. أهواكَ
عربيًّا، أُحِبُّكَ وَأَعْشَقُكَ بطلاً من تاريخٍ يُشبهُ قوتَكَ، ومن حاضرٍ بكِ
يَتَجَمَّلُ ومن مستقبلٍ معك ينتصِرُ!.

أناديكِ في اليقظة؛ فأراكِ في أحلامي وأحكيكِ في المنام؛ فتكونُ
أمامي. يا رجلاً يغزو قلبي وعقلي ومعه الكونُ بَسَمَاتُ أصيلةٍ وصِفَاتُ
كالبراعمِ تَتَفَتَّحُ. خذني إليك؛ فمعك الكوخُ قصرٌ، والفقرُ غنى، ورُدِّني
إليكِ راغبةً أنا... يا لِسَكْنِ في عينيكِ ويا لراحةٍ من عرينِ أتعابِكَ. فلا
يُمْكِنُ أن تكونَ البطولةُ والفروسيَّةُ والانتصاراتُ مجردَ كلماتٍ تَحْطُّهَا
عربيةٌ تُنْزِجُ لها بناتُ أفكارها الأملَ والطَّموحَ والرَّجاءَ. عليكِ مني؛ فأنا
العربيةُ الشَّرقيَّةُ الحالمةُ وأنتِ المُنتظِرُ الآتي بقلمِي ومن وراءِ دواتي.

أجابته لوليا:

"جلالة الملكاتِ سلطاناتُ خيالاتي، ورودٌ وأزهارُ أحلامي ويا
كريماتُ أفكاري، أسكنُ معكنُ وقلمي في محابرِ الحبِّ والحنينِ، أجولُ
معكنُ في فضاءاتِ العُمُرِ والسَّنِينِ. أتَعَطَّرُ برياحينِ الرِّبِيعِ وَأَتَجَمَّلُ
بأبجديةِ عَرَبِيَّةٍ وأمضي فارسةً فوق أصيلةٍ: وَقَعُ حوافرِها في الصَّحارى،
وصهيلُها في المدائنِ، شاهرةٌ سيقًا يَمَلَأُ السَّطُورَ كلماتٍ ومُعَلِّقاتٍ
وقصائدَ عِشْقٍ وهوى.

فوق القلاعِ، أنا وفي الميادينِ وساحاتِ الوغى ووراءِ المنابرِ
وبين أروقةِ الذِّكرياتِ أسيِّرُ ومعِي صُورٌ مُلَوَّنةٌ بأزهى حلَّةٍ وحولُها
إطاراتُ الفَرَحِ والسَّعادةِ والسَّرورِ والحبورِ.

ولو نَزَلْتُ فوقَ وَجَناتِ الدُّجى قطراتُ الندى ورَطَبَتْ وَجَهَ الصَّبْحِ
بشذا الوردِ ورَمَتْ فوقَ الشَّجرِ غيماتِ نيسانَ وشاحًا رائعًا وجميلاً.
تبقينِ، يا كنوزي وثرواتي، مكاني وزماني وكلَّ نبضاتِ قلبي وأعماري.
أنتنِ مدادٌ وينابيعُ وكونٌ فسيحٌ.

تكفيني منكنِ شذراتِ وَعَبْرَاتِ تملأني رِضاً وشَغَفًا وشعورًا لا
يَقْدَرُ بئَمْنٍ ولا تُعادلُهُ جواهرُ ومالٌ ونقودٌ.

دُمُنْتُ لِي نَسَمَاتِ عَلِيَّاتٍ، وَنَجْمَاتِ لَامَعَاتٍ وَشَمْسًا سَاطِعَةً
وَبَدْرًا فِي كُلِّ لِحْظَاتِهِ وَأَنْوَارًا وَأَضْوَاءً، لَا تُطْفَأُ أَوْ تَزُولُ... .

ويقول سامي: "وطن النجوم، ومن محاسن الوجود ومن كرامات
السجود، بَنَيْتُ لِي مَكَانًا أَتَعَبَّدُ فِيهِ بَعِيدًا عَنِ ضَجِيجِ الْأَوْجَاعِ، وَأَتَقَرَّدُ
فِيهِ بِجَوَارٍ مَعَ الدَّاتِ، هُوَيْتِي أَبْجَدِيَّةٌ وَحُدُودِي امْتِدَادٌ لِامْتِنَاهِ! اذْكَرْنِي
أَيُّهَا الْجَبَلُ بِقِمَمِكَ الْمُرْتَفِعَةِ كَقَصِيدَةٍ يُنْظِمُهَا شَجَرٌ دَائِمٌ الْخُضْرَةَ، قَوِيٌّ
يَتَّخِذِي الْعَوَاصِفَ وَنَوَائِبَ الدَّهْرِ، وَضَمَنِي إِلَى شَطَانِكَ أَيُّهَا الْأَزْرَقُ مِثْلَ
مَوْجَةٍ هَادِنَةٍ تُدَاعِبُ الرِّمَالَ اللَّاهِبَةَ. وَيَا مَدِينَتِي الْفَاضِلَةَ، دَعِينِي أُعْبُ
مِنْ شَوَارِعِكَ عَبَقَ الزَّهْرِ وَأَتَنَشَّقُ مِنْ شُرَفَاتِ مَنَازِلِكَ أَزْكَى الْعَطُورِ، لَا
أَتَوَاضِعُ فَأَنَا فِي حَضْرَةِ الْجَمَالِ، هُنَا وَبِكُلِّ غُرُورٍ وَطَنِ النُّجُومِ.

فَوْقَ ثُرَابِكَ، انْطَلَقْتُ وَمَعَكَ نَشَأْتُ وَبِكَ كَبِرْتُ وَتَرَعَرَعْتُ غَيْرَ
مَبَالٍ بِبِشَاعَةِ الْهَجْرَةِ وَلَا مُدْرِكَ لِقَبَاحَةِ اللَّجْوَةِ. وَضَعْتُ نُصْبَ عَيْنِي
رَوْعَتَكَ وَسِحْرَكَ وَإِبْدَاعَ وَضَعُهُ الْخَالِقُ بَيْنَ حَنَائِي وَجِدَانِي أُتَرْجِمُهُ بِلُغَةِ
الْبَيَانِ.

أَنْتَ يَا وَطَنِي، مَوَاطِنُوكَ كَلِمَاتٌ تَتَلَاؤُ فِي الظَّلَامِ وَفِي عَمَمَاتِ الْحَيَاةِ
وَفِي اللَّيَالِي. رَاحَتْ حَوَاسِي إِلَيْكَ كِي تَطْلُبَ اللَّجْوَةَ وَتَنَالَ شَرَفَ الْبِقَاءِ.

وعندما دَخَلَتِ الأخواتُ الثَّلاثُ قُطْعَ الحِوَارِ الأدبيِّ الإنسانيِّ
الاجتماعيِّ، وَرَجَعَ كُلُّ منهما إلى أرضِ الواقعِ وإلى تَقَبُّلِ الأمورِ بمحبةٍ
وإلى قليلٍ من البساطةِ وَرَعْدِ العيشِ بين العائلةِ المُركَّبةِ... واجتمعنا
بعد انقطاعِ هو الربيعِ، فمعكم تُزهرُ الورودُ وتنبُتُ الثَّمَارُ وتَهُبُّ النَّسَمَاتُ
الفَوَاحَةُ بأزكى العطورِ، أحبائي.

اليوم نجتمعُ على الخيرِ في الحفلِ السنويِّ للذَّارِ، نحتفلُ بكلِّ
مقيمٍ ومن كلِّ الأعمارِ يتعايشون بسلامٍ وينعمون بالطَّمانينةِ والأمانِ،
وبالتَّالي هنا المنزلُ والمُنْتَزَةُ والمكانُ الأملُ.

أُحْيِيكُمْ جميعًا وَأُحِبُّكُمْ وَأَشُدُّ على أيديكم وَأَشْكُرُكُمْ. لقد نَجَّحْنَا في
إرساءِ مركزًا لكلِّ مَنْ تَرَكَهُ أهْلُهُ وكان مصيرُهُ الشَّارِعَ يومًا ما وأُهْمَلَ في
زوايا الحياةِ. في هذا المركزِ مؤسسةٌ تَجْمَعُ الكلَّ على المحبةِ والخيرِ.
ندعوكم لتتحدثوا معهم وتُشاركوهم فَرَحَهُمْ وسعادتهم. ها هي وجوههم
مبتسمةٌ وملامحُها موشمةٌ بالحبورِ الَّذِي يَغْطِي البؤسَ والتَّجاعيدَ ووسخَ
الأيامِ التي خَلَّتْ.

تفضلوا إلى الموائد؛ هي للرحمنِ أولاً وأخيراً وثوابًا عن الرِّسولِ
عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وَالَّذِي بُعِثَ لِيَتَمَّمَ مكارِمَ الأخلاقِ. بِسْمِ اللَّهِ نَبْدَأُ

وَنَشْكُرُهُ عَلَى اجْتِمَاعِنَا وَعَلَى إِطْعَامِنَا وَارْتَوَائِنَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ لَنَا وَلَا قُوَّةَ.

أَهْلًا بِكُمْ فَرْدًا فَرْدًا، كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى طَرِيقَتِهِ يَنْعَمُ بِنِعْمَةِ الْعَطَاءِ: كَلِمَةً أَوْ مَالًا أَوْ سَلَامًا أَوْ ابْتِسَامَةً، كُلُّهَا صِدَقَاتٍ وَبِهَا نَطْفِئُ نِيرَانَ الدُّنْيَا وَنَبْتَعُدُّ عَنْ جَهَنَّمَ.

الْجَمْعُ يَتَسَامَرُونَ وَيَضْحَكُونَ وَيَفْرَحُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ. قَامُوا بِتَشْغِيلِ الْمَوْسِيقَى وَبَدَأَ الْعَجَائِزُ وَالْكَهُولُ وَالشَّبَابُ وَالصَّغَارُ بِالرَّقْصِ وَالدَّبْكَةِ؛ أَجْوَاءٌ لَا تُشْبِهُ إِلَّا عَرَسًا كَبِيرًا فِي مَمْلَكَةِ الْفَرَجِ.

شَقِيقَاتِي، الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ كَانَ احْتِفَالًا رَائِعًا بِحُضُورِكُنْ! وَمَعَكُمْ، يَا سَامِي، كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٍ وَسَاحِرٍ، بَارَكَ اللَّهُ بِجَهْدِكَ وَحَفِظَكَ لَنَا وَلِلدَّارِ فَأَنْتَ حَقًّا نِعَمَ الْأَخُ لَنَا جَمِيعًا.

لَا تَنْسُوا اجْتِمَاعَنَا الشَّهْرِيَّ فِي بَيْتِ الْأَهْلِ الْأَكَارِمِ، اسْتَعِدُّوا لِلْخَسْرَانِ بِالْوَرَقِ؛ أَرِيدُ أَنْ أُرَبِّحَكُنْ فَلَا تُتَعَبِنِ أَنْفُسُكُنْ وَارْتَفَعْتِ حِمَاسَتُهُنَّ وَصَرَخْنَ بِفَمٍ وَاحِدٍ: " لِنَرِّ مَنْ سَيَحْسُرُ، أَيُّهَا الْمُعْتَرُّ الْكَبِيرُ! بِالْإِنْتِظَارِ فِي الْيَوْمِ الْمَعْلُومِ. لَا تَنْسَ الْحَلْوَى اللَّذِيذَةَ، أَشْتَاقُ إِلَى مَذَاقِهَا جَدًّا.

فَهَقَّةَ سَامِي وَأَرْدَفَ: " وَالرَّيْجِيمِ؟!!! "

ردت لوليا: "معكم تُرْفَعُ الأنظمة، وتحلو لي الفوضى
والمُشاكسة. إن شاء الله نلتقي على خيرٍ، وداعًا إلى حين. أحبكم أخواتي
وأحبك سامي، أيها الحنون والشاب القوي".

ورجعتُ إلى نفسي أسترجعُ رصانتي وأعودُ أعمالي وأمارسُ
نشاطاتي؛ فأنا أيضًا مسؤولةٌ عن مجموعةٍ من النسوةِ وعوائلهن وأحاولُ
مع فريقٍ عملي مُساعدتهن وإيجادَ أعمالٍ لهن كي يخرُجنَ ممّا كنَّ عليه
من عذاباتٍ وقهرٍ وحُزنٍ ووجعٍ.

أنا وسامي حَرَفْنَا مسارَ النِّقْمَةِ إلى نعمةٍ والكرهيةَ إلى محبةٍ
وبنينا الخرابَ ورَبَّنا قِصَصًا بعناوينٍ إنسانيةٍ تُفِيدُ كُلَّ نَفْسٍ ذاقَتْ وَبَالَ
أمرِ الحِياةِ الصَّعْبَةِ، وذَرَفَتْ بَدَلَ الدَّمْعِ دماءً!

الحمدُ لله على هذه النِّعمةِ؛ فكلُّ ابتسامةٍ في وجهٍ مُعَدَّبٍ تُساوي
كنوزًا وكلُّ وُسومِ الرِّاحةِ في قلوبهم تُقدَّرُ بالملايين من مالِ المُلوِكِ
وحَزَنَاتِ القُصورِ.

صُدْفَةُ النَّقِيثِ بشقيقٍ لم تَلِدْهُ أُمِّي، هو أَخٌ حَقِيقِيٌّ على كثيرٍ
من المُنعطفاتِ والمواقِفِ والدُّروبِ والساحاتِ وكلِّ الأمكنةِ. وفي جلسةٍ
صفاءٍ ومَحَبَةٍ ووفاءٍ ووَدِّ تَحَادَثَ الشَّقِيقانِ الغَريبانِ عن الأحوالِ، كلُّ

حسبَ موقعِهِ وتَجَرِبَتِهِ ودارَ بينهما حوارُ الأجيالِ، رغمَ أنَّهما من جيلٍ واحدٍ وواعدٍ ويُرتجى منه قلبُ المقاييسِ وإرجاعُ الموازينِ إلى نصابِها.

- لوليا: " هل تَعَلَّمْ يا سامي كم كُنْتُ غبيةً عندما كُنْتُ أَنْظُرُ مِنْ حَوْلِي وأعتقُدُ أنَّي وحيدةٌ وسعيدةٌ، وأنَّ كلَّ ما يحيطني يدعو للذَّهولِ ويقولُ لي: " انتبهي أنتِ حالةٌ ونكبةٌ ونكثةٌ من نتاجِ عقولِ باليةٍ وأفكارِ حطبيةٍ وعاداتٍ متوارثةٍ!"

- سامي: " لا عليكِ يا أختي، رغمَ أنوفِهم جميعًا اليومَ نحن انتصرنا وهَرَمَناهم أجمعين."

- لوليا: " معكَ حقٌّ، فيا سامي عنايةُ اللهِ وحُدُّها جَعَلَتنا نقوى على ضَعْفِنا ونواجهُ الحقيقةَ بعنادٍ. صحيحٌ أنَّي هنا لأفني بوعدِي وألْخَصَّ لكَّ وأوجَرَ أطروحتي، ولكن قبلها أَخْبِرْني عن الكَهْلِ الَّذِي نَطَقَ بَعْدَ حِينٍ، ماذا قالَ وما به؟"

- سامي: " لقد صَعَقَنِي يا غالية، وبلَغَ مني الوتينَ وأراقَ مني الدَّمعَ ودَرَفْتُ منه السَّعيدَ والحزينَ. كانَ يُعالجُ وَقَطَعْتُ عليه خَلْوَتَهُ، لقد اتصلوا بي وقرروا أن يُوقفوا علاجَهُ وجَلَسَاتِهِ. قلتُ في نفسي أحاولُ وللمرةِ الأخيرةِ، عساني أجعله يُحَرِّكُ ساكنًا ويحكي ويروي ما شَغَلَهُ وأتعبَهُ وعَقَدَ لِسَانَهُ وأبْطَأَ نبضاتِ قلبِهِ

وصارَ كارهاً للحياةِ وغيرَ مُتفاعِلٍ مع رِفاقِهِ في دارِ العَجَزَةِ؟
أَلْفَيْتُ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ وَأخْبَرْتُهُ عَنِي وَبِصَدَقٍ، حَكَيْتُ لَهُ عَنِي وَعَنكَ
وَعَنَّا، وَدُونَ أَنْ أُبْدِيَ رَأْيًا أَوْ أُشْعِرُهُ بِمَكْنُونَاتِي أَوْ دَوَاخِلَ نَفْسِي .
شَيْئًا فَشَيْئًا بَدَأَ يَتَأَثَّرُ وَيَتَفَاعَلُ وَنَطَقَ الصَّامِتُ الْكَبِيرُ وَبِصَوْتٍ
أَجْشٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَجْهَشَ بِالْبِكَاءِ وَهَذَا وَتَكَلَّمَ... وَفِي حَدِيثِهِ حِكْمٌ؛
كَيْفَ أَنَّ الدُّنْيَا تُنذِرُنَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَتُضَيِّقُ عَلَيْنَا الْخِنَاقَ وَتُحَاوِلُ
المِصَائِبُ أَنْ تُذَكِّرَنَا دَوْمًا بِسَاعَةِ الرَّحِيلِ مَهْمَا كُنَّا أَوْ سَنَكُونُ .
تَصَوَّرِي فِي مَوْقِفٍ مُؤَثِّرٍ قَالَ أَنَّ أَحْفَادَهُ اجْتَمَعُوا حَوْلَ وَالدِّهَمِ
يَطْلُبُونَ أَغْرَاضًا لَهُمْ يَحْتَاجُونَهَا؛ فَوَعَدَهُمْ ابْنُهُ بِجَلْبِهَا . وَمَا كَانَ
مِنَ الْكَهْلِ إِلَى أَنْ تَقَدَّمَ فِي مَعْمَعَةِ الْأَوْلَادِ وَحَاوَلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَصَرَخَ
الابْنُ وَالْكَنَّةُ: " هَلْ أَنْتَ وَوَلَدٌ صَغِيرٌ؟! أَمْ أَتَىكَ تَعَارٌ مِنْ أَحْفَادِكَ؟
مَاذَا تَنْتَظِرُ وَمَا الَّذِي تُرِيدُهُ؟" حَجَلٌ وَاحِمَرٌ وَتَقَوَّقَعَ فِي زَاوِيَتِهِ فِي
غُرْفَةِ أَبْنَاءِ ابْنِهِ وَبَكَى . هُوَ فَقَطْ حَاوَلَ أَنْ يَقُولَ لِابْنِهِ أَنَّ قَمِيصَهُ
لَهُ قَبَّةٌ مُهْتَرِنَةٌ وَرِفَاقُهُ فِي الْقَهْوَةِ يُعَيِّرُونَهُ؛ لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَأْخُذَهُ،
يَا ابْنِي، إِلَى الْخِيَاطِ لِيُقَلِّبَ الْقَبَّةَ لِي! فَمَا لَقِي آدَانًا لَا صَاغِيَةَ
وَلَا مُسْتَمِعَةَ وَلَا دَعْوَةَ يَتَكَلَّمُ . بَكَى وَنَامَ وَبَقِيَتْ قَبَّةُ الْقَمِيصِ مُهْتَرِنَةً
حَتَّى التَّقِينَا بِهِ وَجَاءَ إِلَى هُنَا . وَأَزْدَفَ قَائِلًا: " حَتَّى الطَّعَامَ، يَتْرَكُوا

لي ما تبقى عنهم وأجلس مُنفردًا على الشرفه بحجة الهوائ
وَأَتَنَشَّطُ وَأَزْتَاخُ، وَلَكِنَّهُمْ سَهَوُ عَنْ أَنَّ الْمَوَائِدَ خَيْرُهَا فِي كَثْرَةِ
الجالسين حولها!. الحمد لله هي الدنيا فانية؛ دَيْنٌ نُؤَدِّيهِ وَدَيْنٌ
نُدْفَعُهُ. ماذا تنتظرين من قومٍ لا يتقنون الدين ولا يمارسون
التعاليم، إلا وفق أهوائهم!. أين البر بالوالدين؟ وأين الإنسانية؟
- لوليا: : فعلاً حالتهُ جدُّ مُحزنة. المهمُّ أنه اقتنعَ بجلساتِ العلاجِ،
وَفَضَّضَ وَخَفَّفَ مِنْ ثِقَلِ هُمومِهِ وَتَكَلَّمَ. أَحْسَنْتَ يَا سَامِي، وَاللَّهِ
إِنَّكَ لَبَطَلٌ.

- هكذا قال لي المُعالِجُ وأثنى عليّ وطلَّبَ مني أنْ أَحْضِرَ معهم
دائمًا. وعدتهُ أنني سأعملُ جهدي وأنظِّمُ وقتي فمرافقتي له لن
تكون على حسابِ عملي.

- لوليا: : لو تَعَلَّمُ ما تُلاقيه، ونُصَادِفُهُ من صعوباتٍ وأناسٍ
مَظْلومينَ وظالمينَ على حدِّ سَوَاءٍ، واللَّه يَأْتِي عَلَيَّ الْمَسَاءُ وَأَنَا
أَتَحَبَّبُ فِي أَفْكَارِي وَكَيْفِ سَأُقَدِّمُ الْمُسَاعَدَةَ لِلْبَعْضِ أَوْ كَيْفِ أَمْنَعُ
الْبَعْضَ مِنَ الْقِيَامِ بِأَفْعَالٍ شَنِيعَةٍ وَغَيْرِ مَلَائِمَةٍ وَلَيْسَتْ صَحِيحَةً
. اسمع، سأتلو عليك موجزًا مُهمًّا من أطروحتي. لو كانت
حبيبتِي حَيَّةً، لَكُنْتُ أَسْعِدُ خَلْقَ اللَّهِ كُلَّهُم وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَالْحَمْدُ

لله. اسمع يا أخي، ولا تَمَلَّ من كلماتي وأريدُ منك تصويباً
ومناقشةً، وأرجو ذلك فلا تَهْمَلْ حَرْفاً ولا تترك كلمةً أرجوك، يا
سامي يهمني وجودك بجانبني وأحبُّ مشاكساتك، فلا تبخل بها
عليّ

بسم الله وبه نستعين.

"مُلَخَّصُ دراسةٍ شاملةٍ عن واقعِ المرأةِ المُعاصرةِ وعمادِ المجتمعِ
"العائلة" وكيف يكون الرجلُ المُهَمَّ والسندَ والمُحَفِّزَ والأمانَ؟"
- عنوانها: "برّ النساءِ المُلتزماتِ بشرعِ الله وودّ الرجالِ القوامينَ
عليهن بالحبِّ والإيمان".

والبدءُ عني، طفولةٌ رائعةٌ كالنسيمِ وكلّ ما حولها يتشبهون بالملائكةِ
والمحيطون بها مُحِبِّينَ يرجون فرحها ورضاها وحمائتها. ولما صارَ
العقلُ رشيداً، شَعَرْتُ بنفسي تُلحُّ على أسئلةٍ جَمَّةٍ لا أجوبةَ عليها. وفرغْتُ
من كثيرٍ من الرضا وتَرَكْتُ ورائي كلَّ صدىٍ لما تَعَلَّجُ فيه ذاتي،
ورَكَزْتُ على رؤيةٍ هلالِي وهو يَكْبُرُ ويُنِيرُ ومِلْتُ نحو اليمينِ، وعالَجْتُ
كلَّ أموري بإيجابيةٍ عظيمةٍ، ولو مَحَوْتُ حُزني بضحكاتِ الزمانِ،
ومَسَحْتُ دموعَ وجنتي بابتساماتِ الأيامِ، وأكملتُ مسيرتي وعززتُ
إنسانيتي وكلّ هذا بفضلِ الله الذي وهبني أمّا صالحةً ومُرشدةً روحيةً

كانت تدعّم مسيرتي على مرّ السنين. وسأحدّد نقاطاً وأكبرها كي تظهر
حقيقتها وأستطيع إيصال ما أريد لكلّ من يقرّأني ويستمع إلى كلماتي؛
والمحور: " المرأة المعاصرة"...

المرأة المعاصرة، نعم! ولن أنتظر مؤيِّداً ولن يؤخّرني ناقدٌ ولما
يُحِبُّ عزيّمتي جبارٌ جَلْمودٌ.

تفنّنت عبقريتي، وبشهادة الأساتذة، عن حقيقة ساطعة وهي أنّ المرأة
اليوم بلا عنوان، ولأسف بلا تعاضدٍ أوتعاونٍ. هي الشريفة والمسجونة،
وهي المنطلقة والخلوقة، وهي الفانية قسراً والمهملّة حصراً، هي الضعف
والوهن، وهي القاسية كالصخرة التي تتفتّت، وهي التي شلوا يمينها
وربّطوا يسارها، وأطلقوا لسانها وأسرفوا في إظهار عيوبها، ولخصوها
بالعُهر والعريّ والتعرات الغرائزيّة، وصدقت مقولة المساواة والحرية
وجرت تلهت وراء شهرة ما أو جمالٍ مُرورٍ أو خدعة قاتلة، وسقطت
عنها مسؤولية التربية والتعليم والعظمة وانهارت وانهارت بفضلها
المبادئ والأخلاق والقيم، ولوّنوا الواقع بألوانٍ لا تُشبهه مجتمعا ولا
تمت للمرأة بصلة.

الأمّ، والابنة، والجدّة، والخالّة كلهن، إلّا من رحم الله، دخّلن في متون
التقاها والتقاها، حتى فرط عقد الطهارة وتغيّر اسم السّتر، وتوسّمت

الدَّعَاةِ فِي مُصْطَلِحَاتِ الْفِعْلِ وَالْكَلَامِ. لَسْتُ جَرِيئَةً وَلَكِنْ هَكَذَا أَرَى
وَأَقَعَهَا وَأَرَاهَا! وَحَتَّى لَا أَظْلَمَ؛ فَتَسْعُونَ بِالْمِئَةِ مِنْهُمْ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ
وَصَفَّ الشَّاهِدَاتِ عَلَى التَّغْيِيرِ: سَفَهُ وَجَنونٍ وَمُجُونٍ.

الْجَارِيَّاتِ صِرْنَ عَبِيدَاتٍ وَأَمَاتٌ لِكُلِّ صَرْعَةٍ وَمَوْضَةٍ وَحَدَّثَ فِي الْعَالَمِ.
الْأُمُورُ الَّتِي لَا تَعْنِينَا صَارَتْ مَهْمَةً لِهِنَّ وَالْأُمُورُ الَّتِي تُصْلِحُ حَالَنَا لَا
تَمُرُّ بِالْأَذْهَانِ.

صِدْقًا دَمَرَتِ الْمَرْأَةُ أَوَاصِرَ الْقُرْبَى، لَيْسَ لِلْعَائِلَةِ فَحَسْبُ بَلْ لِلنِّسَاءِ
الصَّالِحَاتِ فِي التَّارِيخِ وَلِكُلِّ مَا يُشَدِّبُ مَجْتَمَعَنَا مِنَ الشَّرُورِ الَّتِي أَخَذْتَنَا
إِلَى الضَّلَالِ وَأَفْشَتْ فِيمَا بَيْنَنَا الْفَسَادَ... لَسْتُ قَوِيَّةً، وَلَكِنْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
لَنْ أَنْطِقُ بِالْهَوَى وَإِنَّمَا قَوْلِي فَهُوَ عَنْ يَقِينٍ وَرَغْبَةٍ فِي تَحْسِينِ وَضْعِ
الْمَرْأَةِ بِالذَّاتِ؛ فَإِذَا مَا صَلَحَتْ تَصْلُحُ الْعَائِلَةُ وَبِالتَّالِي يَصْلُحُ الْمَجْتَمَعُ
وَنَذْهَبُ نَحْوَ أُمَّةٍ قَالَتْ عَنْهَا الْمَوْلَى خَيْرَ أُمَّةٍ. اتَّرَكِي الشَّكْلَ وَرَكِّزِي عَلَى
وَجُودِكِ. اخْتَارِي مَنْ يُمَسِّكُ يَدَكَ وَتَسِيرِينَ مَعَهُ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ أَوْ حَتَّى
أَمَامَهُ، فَتَكُونِينَ إِمَّا مُسْتَرْجَلَةً أَوْ حَيَوَانَةً

وَأَنْتِ إِنْسَانَةٌ. ابْنِي لِكَ بَيْتًا وَلَيْسَ مِنَ الْجِدْرَانِ، وَإِنَّمَا مِنَ الدَّعَاوَاتِ
وَالصَّلَوَاتِ وَالْعَمَلِ بِرِضَا اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَا تَتَّرَكِي وَلِذَلِكَ
لِخَادِمَةٍ وَلَا لِأَمْتِكِ وَلَا لِكَائِنٍ مِنْ كَانَ. أُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ لِلزَّوْجِ،

والولدِ ولكلِّ مَنْ لَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ: من المعاملةِ الحسنَى والجُهدِ العظيمِ
والكلامِ الطيبِ والتَّحفيزِ على الوصولِ إلى مكانٍ فاعِلٍ ومُؤثِّرٍ؛ وبالتالي
يكونُ الوعيُ سلاحًا والعلمُ حياةً والتقىُ أسلوبًا والحُبُّ مضمونًا. مهلاً،
لقد كانتُ مقدمتي النَّاريةُ بمضمونها السَّلبيِّ، في حديثنا المُطوَّلِ عن
بانياتِ المجتمعِ، ومنشآتِ الأجيالِ، نساءِ الأُمَّمِ عموماً وأمَّتنا بشكلٍ
خاصٍ ومُرَكِّزٍ

- سامي: حصني نفسك أختاه؛ فسوف تنهال عليك الشتائم
والبنذورة

- لوليا: يا لك من سَنَدٍ! إن كُنْتَ أَنْتَ مَنْ يَجِبُ أَنْ يَقِفَ إِلَى
جانبي، فماذا تَرَكْتَ للغير؟! وَفَهَّهَتْ وَتَابَعَتْ...

"أهميّة المرأة": تُعدُّ المرأةُ جزءًا لا ينفصلُ، بأيِّ حالٍ من الأحوالِ،
عن كيانِ المُجتمعِ الكليِّ، كما أنها مُكوِّنٌ رئيسيٌّ للمجتمعِ؛ وقد تتعدى
ذلك لتكونَ الأهمَّ بين كلِّ المُكوِّناتِ. وقد شَعَلَتْ المرأةُ عبر العُصورِ
أدوارًا مهمَّةً، وكانتُ فاعلةً ونشيطةً في وَضْعِ القوانينِ والسِّيَاساتِ، وفي
تسييرِ حركةِ الحياةِ السِّيَاسيَّةِ. خَلَقَ اللهُ تعالى الجِنسين: الذَّكَرَ والأنثى
ليُكَمِّلَ كُلُّ منهما الآخرَ، حيثُ وفَّرَ لهما كلَّ الأدواتِ والأساليبِ المُمكنةِ
لانماءِ الحياةِ ونهضتها على الأرض؛ فقد جاءتِ الأديانُ السَّماويَّةُ لتُنظِّمَ

علاقتيهما وتذقعهما لبذل أقصى الجهود لتحقيق غاية الله الذي خلق الإنسان لأجلها.

دور المرأة: في المجتمع، يُعدُّ دورُ المرأة في المجتمع كبيرًا جدًّا وذا أثرٍ بالغِ الوضوح، كما أنه دورٌ حسَّاسٌ جدًّا، وإنَّ تحييدَ دورها وابتذالها واستغلالِ قُدراتها بشكلٍ يفوقُ قُدرتها واستنزافها، يقودُ لضياح المجتمعات وتشتُّتها وهدمِ الأسرِ وتقويضِ بنائها، وأبرزِ أدوارِ المرأةِ واسهاماتها في الحياةِ والمجتمعِ: الأمومة، يُعدُّ دورُ الأمومة أهمَّ الأدوارِ في حياةِ المرأةِ ودورًا أساسيًا في قيامِ المجتمعِ والحضاراتِ والأممِ؛ فدونه لا يُمكن أن يكونَ لدينا علماءٌ وعُظماءٌ يمنحون الحياةَ التَّغييرَ ويساهمون في تغييرِ الواقعِ تغييرًا جذريًّا بما يُفيدُ الإنسانيةَ كلَّها. يَشْمَلُ دورُ الأمومةِ الكثيرَ من الأدوارِ الفرعيةِ داخلَ مفهومِهِ، ومنها: الاهتمامُ بأفرادِ العائلةِ ومشاكلهم، ومنحُ الدَّعمِ العاطفيِّ والنَّفسيِّ لأفرادِ العائلةِ، خاصَّةً في أوقاتِ الشَّدائدِ بتثبيبتهم واحتوائهم، والتَّنشئةُ والتَّربيةُ على المبادئِ الصَّحيحةِ والقيمِ المُجتمعيَّةِ الحَقَّةِ، ويتعدَّى دورُ المرأةِ كونه مجردَ تربيةٍ إلى كونه إعدادًا لحيلِ يستطيعُ التَّعاملَ مع المجتمعِ، ويُحسِّنُ قيمةَ العطاءِ يُفهمُها، فتقومُ المرأةُ برُفدِ أبنائها بالمهاراتِ الاجتماعيَّةِ كما تُوضِّحُ لهم حقوقهم وواجباتهم. يُشارُ إلى أنَّ هذه الأدوارَ هي في قمةِ

الأهمية؛ كونها تُقدّم وتضمّن الاستقرار العاطفيّ والنّفسيّ لأفراد العائلة، وتصنّع منهم أشخاصًا مُتزنين، وأصحاب قيمٍ وأخلاقٍ ترفع المجتمع وتعلو به، ممّا يُنعكس على المجتمع ككلّ، تقديم الخدمات لأبنائه بالمفهوم الواسع. الأمومة مصطلحٌ يشمل الكثير من الأدوار التي تقوم بها المرأة، ومنها: العمل في مجالاتٍ تَبْرَعُ فيها، والعلمُ المناسب الذي يُحوّلها العملَ بِإتقانٍ. بالتعلّم والعمل تستطيع المرأة توعية النساء اللواتي تعرّضن للإساءات من قِبَلِ الرجال، وتعليمهنّ حقوقهنّ وتدريبهن على مواجهة الحياة بأساليبٍ جيّدة. و من خلال قيامها بالأعمال الخيريّة وتخصيصِ جُزءٍ من وقتها لذلك، تُثبِتُ المرأة امتيازاتها وقدراتها وسماتها وشخصيتها ونفسيّتها. إنّ قُدرة المرأة العاطفيّة هي أعظم صفاتها؛ ممّا يساعدها على التّعامل مع بعض الحالات التي لا يستطيع الرجل التّعامل معها: كالحالات التي تخصّ النساء وما يتعلّق بهنّ من اضطهادٍ وتعنيفٍ لقُدّرتها ومهاراتها في الإقناع والتّواصل والتأثير واستثارة العواطف؛ فالمرأة تستطيع أن تتولّى الكثير من أمور المؤسسات والهيئات الرّسميّة التي تُعنى بالأمور الأسريّة والاجتماعيّة والحقوقيّة بكفاءة. إنّ من أدوار المرأة التي تفرضها عليها المسؤولية:

- أن تُساندَ زوجها في وقتِ المصاعِبِ والشَّدائدِ، فَقَدْ تُعينُهُ في الانفاقِ فتعملُ، وهذا ممَّا لا يُعدُّ واجبًا عليها، إنَّما تقومُ به رغبةً منها في مساعدةِ شريكِها؛ حيثُ إنَّ المرأةَ هي مَنْ تَدْفَعُ الرَّجُلَ وتُحْفَظُهُ لِيخطوَ للأمامِ.

- توطيدَ العلاقاتِ بين أفرادِ العائلةِ والمجتمعِ؛ فالمرأةُ تُشجِّعُ عائلتها على صلةِ الأرحامِ ومشاركةِ النَّاسِ أمورَهُم كافةً، ممَّا يَنشُرُ المحبَّةَ والتَّعاونَ، فنقومُ الأجيالُ على المبادئِ السَّاميةِ والقيمِ والمحبةِ والوُدِّ.

إنَّ للمرأةَ دورًا كبيرًا في نهضةِ المُجتمعاتِ؛ حيثُ لها حضورٌ واسعٌ، فهي بمثابةِ المُعلِّمِ والمُتعلِّمِ، وتُقصدُ لِيؤخَذَ العلمُ عنها. في إبداءِ الآراءِ والاستشاراتِ لها باعٌ طويلٌ وقدرةٌ على تقويمِ الرِّوايا وتغييرِ الأشكالِ من أجلِ تحقيقِ الهدفِ المنشودِ، والتَّاريخُ يشهدُ بالكثيرِ من الأمثلةِ التي تُبيِّنُ أهميَّةَ دورِ المرأةِ في النهضةِ، والحاضرُ خيرُ دليلٍ على فضلِ المرأةِ في كافةِ الميادينِ؛ فنسبةُ مشاركةِ المرأةِ في صنْعِ القرارِ في الدَّولِ ترتفعُ، وليس صحيحًا أنَّ وضعَ المرأةِ في الوطنِ العربيِّ يتدهورُ ومشاركتها غيرُ فعالةٍ في اتِّخاذِ القرارِ وصناعته! إذ أسهمتِ نساءٌ كثيراتٌ في تقدِّمِ المجتمعاتِ العربيَّةِ وتركَّنتْ بصماتٍ خالداً وفي كافةِ

المجالات. لا تختلف المرأة العربية عن غيرها من نساء العالم في سعيها إلى تطوير مجتمعيها، فهناك الكثير من السيدات العربيات اللواتي تركن بصماتهن في التاريخ، في مجالات متنوعة: من النضال إلى الجمال، مروراً بالعلم والرياضة والفن. وكثيرات فاعلات، ورائدات وناشطات، وناجحات في أعمالهن لا بل مُتفوقات، وطبعاً يوجد منهن المشهورات عالمياً وعربياً وإعلامياً. ولكن الأغلب منهن غير معروفات ولا يُعْتَبَرْنَ رائدات ولا يُدَكَّرْنَ أبداً؛ مع العلم أنهن يرمزن للتوازن الذي يعدل الحياة وهن الصمام الذي يحفظ المجتمع من الانهيار والضياع؛ فمن ربه المنزل إلى الدكتوراة فما بينهما من مراكز ومواقع تحلها المرأة وتترك فيها آثاراً عظيمة، تبدأ من الأمومة إلى المديرية لكل الأمور، والقائدة لقطار العائلة الصغيرة ولعملها ونشاطها. فالمرأة اليوم، بحقي، ورغم مساوية الأمور والمشاكل المُستفحلة والفوضى المُستحدثة، هي وحدها القادرة على غرابة المواقف وتعديل الموازين وتسييد المقاييس والبت في الوجود نفحات حنانٍ وحبٍ وودٍ وونامٍ. فسبحان الذي خصها بكم هائل من العواطف والأحاسيس والتي تُترجمها تحفيزاً لكل من حولها، ودعمًا ودفعًا إلى النجاح والتفوق والوصول بالمجتمع إلى الأفضل!

تخيلوا معي عالمًا بلا نساء، ماذا سيحصلُ أيها العابثون بالأمم
الاجتماعي، المُفْرِطون بحقوقِ النساءِ، والمُقَصِّرون في أداء الواجباتِ!
حقيقةً مجتمعٌ جامدٌ مُتَحَجِّرٌ لا حراكَ ولا حياة؛ لذلك من أولى الواجباتِ
استرجاعُ مكانتها، وإكرامها وصونها وبعيدًا عن العِراضاتِ الإعلاميةِ
والتَّرويجاتِ الإعلانيَّةِ، فهي المحفوظةُ، كما القرآن، ووُعِدَتْ بالجنةِ
بوعْدٍ من الرَّحمنِ وحديثِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ولا شك يا أيها
المأُ العظيمُ التَّكريمُ فرضٌ واجبٌ لهنَّ وإهمالهنَّ لؤمٌ وتحريفٌ وتزويرٌ.
قد أسمعُ مَنْ يَنشَدُ بالقولِ، كقولهم أنَّ سببَ الانهياراتِ الجَمَّةِ الحاصلةِ
لنا هو المرأةُ! في مكانٍ ما الكلامُ صحيحٌ ولكن ليست هي مَنْ وَضَعَتْ
نفسها هناك؛ فالضعفُ والوهنُ والإهمالُ من الأسبابِ. قووا عزائمهنَّ
وشدوا على أيديهنَّ، وتوقفوا عن اعتبارهنَّ مخلوقًا درجةً ثانيةً ومجرِّدةً
من الحضورِ، وخلفيةِ الموضعِ وورائيةِ الظَّهورِ.

هي الأولى، نعم ومع حواء أمتنا تَجَمَّلنا بماءِ الجنةِ وساندنا سيدنا
آدم وكنا له المتكأ والزَّوجَ الولودَ والودودَ، ومُربيَّةَ الأبناءِ والنَّاشرةَ في
الأرضِ السَّلامِ. ومَرَّ في واقعي نساءً لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ابتسامتُهم
صدقاتٌ وكلماتُهنَّ حَسَناتٌ وأعمالُهنَّ خيراتٌ. يَسْعَيْنَ لِلجِهَادِ بِأسلحةِ
تُحيي ولا تقتلُ، تبني ولا تَهْدِمُ، تُفْرِحُ ولا تُحزِنُ، تُشفي ولا توجعُ. العِلْمُ

والإيمان والمحبة والتعاون والتضحية وإيثار النفس والارتقاء والسمو
للوصول إلى أهدافهن في مساعدة المحتاج، ومد يد العون لكل ضعيف
ومعوز وفقير هي أهم الصفات التي تتسلح بها النساء؛ وبلا مقابل أو
أجر إلا من رب العالمين، تقوم بكل ما تقوم به. ولا تسألوا ما هو السرُّ
الذي يجعلنا نمضي قدماً غير آبهين بزعيم ظالم أو مسؤول فاسد أو
دولة هالكة.

اليوم نعيش في دولة الأمة، ودولة الناس ودولة العوام ودولة الشعب؛
وشتان بين الحكم وبين المحكوم.

انقطعت أواصر القربى وبات كل واحد من جهة ولو كانا في ذات
البقعة الجغرافية المنتهكة والمسجونة في أنظمة مهترئة قديمة والأمة
واعية تتقدم بكل حذافير القوة، رافعة الحرية لها راية وغير مبالية لا
بحروب عبثية مفروضة ولا بضائقة اقتصادية مُفْتَعَلَة، وكل هذا بفضل
المرأة وقوتها وعمَلها ومثانة علاقتها بثقافة الحياة التي تغرس الأمل في
الأبناء وتزرع في قلوبهم شتى النبات. ولست ممن يقسمون الإنسان
ويطالبون بالمساواة، وذلك لأن النساء لا ينتظرن مساواة الدنيا؛ فإنهن
مكرمات بأمر رباني ومُحصنات بدروع تجعل اليباس أخضر
والصحاري حدائقاً غناءً وتُجبر الينابيع وتمنح الحياة. ولست من دعاة

الحرية للمرأة؛ لأنها تملك في يمينها الشمس وتدير في يسارها العائلة
والمجتمع والوطن وبالتالي العالم كله بثبات وتؤدّة وعزم وإصرار. لا
تُحِبُّ الأطفال فقط؛ ولكنها تُحِبُّ كلَّ دعائم الوجود وتُفشي الإيجابيات
وتُلوّن السواد وتروي الأيام وتُرَيِّن الزمان.

هي الأم والأخت والزوجة، والخالة والعمّة والجدّة، والابنة
والحفيدة والجارّة، والتّالية والصّالحة والمرأة العتيده. المرأة التي تُعَنَفُ
اليوم تُمثّل وصمة عارٍ على جبين الإنسانية، وتَجْعَلُنَا نَهْزاً بالقوانين
والأنظمة المرعيّة الإجراء؛ فماذا يُفيد الضّحية المُعَنَفَة، التي دُفِنَتْ تحت
التّراب، تجريم القاتل والحكم عليه بالسّجن سنواتٍ وبعدها يمضي
باختصارٍ المُدّة أو لسببٍ ما يتمّ إخلاء سبيله....

يَحْضُرني زمنٌ وأدِ الفتياتِ، على الأقلِ، حينها، كانت وليدّة
وليس صبيّةً ولا أمّاً ولا ناضجةً ولا مصونةً كبيرةً! ولستُ هنا بصددِ
الدّفاعِ عن الجاهليّة ولكنّها مقارنةٌ بسيطةٌ كي نرى ما نحن عليه بالعينِ
المُجرّدة، فلنُنا بحاجةٍ إلى مُكَبِّراتٍ. ما زالتُ، يا سادة ويا سيدات، المرأةُ
في مجتمعاتنا ضعيفةً ووهنةً ويطلقون عليها أحكاماً وألقاباً شتى تؤذيها
وتُلحِقُ بها الضّررَ المعنويّ. وكانت وصيةُ السّيده، والدتي الغالية، أن

أَسَاعِدَ كُلَّ ذَاتِ مُشْكَلَةٍ وَأَعِينَهَا وَأَمُدَّ لَهَا يَدَ الْعَوْنِ مَا اسْتَطَعْتُ إِلَيْهِ
سَبِيلًا.

فَكَانَتْ مُؤَسَّسَةُ الْيَاسَمِينَ الْخَاصَّةِ بِالنِّسْوَةِ الْمُهْمَلَاتِ وَالْمَتْرُوكَاتِ
وَالْقَابِعَاتِ فِي زَوَايَا النَّسْيَانِ وَالْمَظْلُومَاتِ. فَلَا تَعْنِينِي إِعْطَاءُ جِنْسِيَّةٍ وَلَا
يَهْمَنِي لِأَيَّةِ جِهَةٍ تَنْتَمِي الضَّحِيَّةُ، تَرْكِيزِي عَلَى إِعْطَائِهَا ثِقَتَهَا بِنَفْسِهَا،
وَبِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالتَّحَلِّيِ بِالصَّبْرِ وَالصِّفَاتِ الْفَضِيلَةِ.

وَنِلْتُ شَهَادَتِي بِامْتِيَازٍ وَمَعَ مَرْتَبَةِ الشَّرْفِ. وَأَهْدِي نَجَاحِي إِلَى
مَنْ غَرَسَتْ فِي وَجْدَانِي حَبَّ الْآخَرِينَ وَزَرَعَتْ فِي قَلْبِي الْأَمَلَ وَحَقَّقَتْ
لِي حُلْمِي الْكَبِيرَ، إِلَى الَّتِي رَبَّنْتَنِي وَوَضَعْتَنِي مَعْنَوِيًّا وَأَرْضَعْتَنِي
الْحُرُوفَ الْعَرَبِيَّةَ مَعَ الْحَلِيبِ وَجَعَلَتْ لِسَانِي قَوِيمًا وَكَلِمَاتِي دُرًّا
وَحِكْمًا...

مَا زِلْتُ أَعِيشُ عَمْرِي مُنَاصَفَةً مَعَ مُذْكَرَاتِكَ وَمَعَ عَمَلِي فِي
الْمُؤَسَّسَةِ وَأَوَازُنَ بَيْنَهُمَا؛ فَكِلَاهُمَا يُكْمَلُ الثَّانِي وَهَكَذَا أَحْيَا: لَا أَهَابُ
الْحَقْرَ وَلَا أَخْشَى الْمُنْزَلِقَاتِ وَكُلَّ الطَّعْنَاتِ هِيَ دَرُوسٌ لِي وَكُلَّ الصِّفَعَاتِ
جُرْعَاتٌ مَنَاعَةٌ ضِدَّ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ. وَصِرْتُ قَوِيَّةً، وَلَيْسَ بِمَعْيَارِ الزَّنُودِ
وَالرَّهْبَةِ وَالْفَرَعِ؛ صِرْتُ قَوِيَّةً بِإِيْمَانِي بِأَنَّ الْخَيْرَ لَا يَزَالُ عَلَى الْأَرْضِ
وَاللَّبْنَةَ الْمَفْطُورَ عَلَيْهَا ابْنُ آدَمَ لَا تَزَالُ تَنْبِضُ مَحَبَّةً وَرَحْمَةً.

وبين يديّ أوراقِي النَّاصِعَةُ البيضاءُ وحتى كلماتُها تكادُ تكونُ
لي نورًا في عَمَمَاتِ أَيَّامِي وتزيديني نِصَاعَةً وألقًا وبريقًا. وهذا شعورٌ
داخليٌّ يجعلُ مني ابتسامَةً على وجهِ حزينٍ وفرحةً في ذاتِ موجوعٍ
وكرامةً لدى كلِّ محرومٍ وفقيرٍ.

وأنا اللؤلؤة التي هي مكنونةٌ ومنتثرةٌ وفي كلتي الحاليتين محفوظةٌ
منشورةٌ، تَعَكِسُ ما لديها من إيجابياتٍ على كلِّ مَنْ حَوْلِها وتجعلُ من
نَفْسِها محاةً للمآسي وريشةً حَبِرٍ أزرقٍ لكلِّ الأفراحِ. هي التي تُؤمِنُ
قطعيًّا أنها كقلمِ رصاصٍ يَكْتُبُ ولا بُدَّ أن يَحْدُلُهُ النسيانُ في يومٍ من
الأيامِ.

ومع أوراقِكِ الخريفيةِ، يا أجملَ كنوزي ويا سندي في حياتك
وملجأي في مماتِكِ، سوف يكتبني الفصلُ الأخيرُ من الروايةِ كما
حَطَّتها يمينُكِ وبرعتِ في رسمِ تفاصيلي التي مازلتُ أجهلُ غالبيتها
وأكتشفها معك كلَّ يومٍ؛ فيزيدُ حبي لكِ أكثرَ وأكثرَ.

الأمُّ البديلةُ هي بِمكانَةِ الأمِّ الأصليةِ، ومن غيرِ حساسيةٍ، تكادُ
تَعْلُبُ الثانيةَ لِتَتَرَبَّعَ على عرشِ الأمومةِ وتُنَجِّزُ صناعةَ الحياةِ الكريمةِ
الفضلى لي ولأترابي، ولو ببنتِ شَفَةِ أو سكونٍ أو صمتٍ أو حركةٍ أو
عملٍ. وتقولين: " لن أَكْتُبَ لكِ وصيةً ولن أُسهبَ في توجيهك؛ فأنا

تَرَكْتُ لِكَ الْمَقْوَدَ مِنْذُ كُنْتُ صَغِيرَةً جَدًّا. وَلَنْ أُشَدِّدَ عَلَى التَّعْلِيمَاتِ وَلَا عَلَى التَّوْجِيهَاتِ؛ فَطَبْعُكَ يَكْرَهُ الْفَرَضَ وَلِغَةَ الْأَمْرِ، وَأَفْهَمُكَ وَأَسْتَوْعِبُ شَخْصِيَّتِكَ الْفِدَّةَ وَالْمُتَمَرِّدَةَ وَذَاتَ الطَّبَاعِ الْخَاصَةِ جَدًّا. لِذَلِكَ، يَا لَوْلِيَا، مَا سَوْفَ تَقْرَأُ فِيهِ هُنَا مَجْرَدَ ثَرْتَةٍ وَأَحَادِيثٍ بَيْنَنَا وَوَشْوَاشَاتٍ وَبَعْضَ الْخِلَافَاتِ حَتَّى لَا نَدَّعِي الْمِثَالِيَّةَ وَالتِّي هِيَ أَشَدُّ كَفْرًا عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِلْحَادِ. فَالْأَنَا "أَخْطَرُ مَا نَوَاجِهُهُ الْيَوْمَ وَالْمَصْلَحَةُ الْفَرْدِيَّةُ وَالتَّقَاتُلُ عَلَى الْمَرَكَزِ وَالْمَالِ وَالتَّنَافُسُ عَلَى السَّلْطَةِ وَالجَاهِ وَكُلِّهَا فِي سَبِيلِ " الْأَنَا الْقَاتِلَةُ".

اللَّهُ خَلَقَنَا شُعُوبًا، وَهُوَ وَحْدُهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ وَمَعَ مِمَارَسَةِ الْأَنَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، نَكُونُ قَدْ جَعَلْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا آلِهَةً عِدَّةً وَتَتَكَاثَرُ لِلْأَسْفِ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ وَتَتَعَاضَّمُ مِنَ الرَّأْسِ إِلَى الْقَاعِدَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا...



الفصل الحادي عشر والنهاية البداية

لؤلؤتي الغالية، تعلمين جيّدًا أنّ الإنسانَ ليس كاملاً وعنده
الحسناتُ ومعه السيئاتُ، والفوزُ بيسرِ العيشِ وراحةِ البالِ، يكونُ بتغليبِ
الخيرِ على الشرِّ وبوضعِ نُصْبِ أعيننا أنّ الميزانَ بضمائِنا وسائرِ
دروعِ المواجهةِ في قلوبنا وحتىّ في عقولنا ممكنٌ أن يكونَ حُلْمًا أو
أمنيةً أو رسالةً، أو حتىّ مُجرّدِ بطاقةِ عبورٍ من الأولى إلى الآخرةِ،
وبين طَرَفَي الحياةِ شروقًا وغروبًا...

ولو أنّني رَحَلْتُ ولكن هي كلماتي لكِ للترفيهِ والإفادةِ معًا...
اكسري طوقَ اللّوالمِ الوضعيّةِ وحطّمي كلّ الأعرافِ والتقاليدِ
وامتلي فقط لأوامرِ الله وهدي الرّسولِ وقلبكِ غيرِ المفتونِ وأفكارِكِ
اللّؤلؤيّةِ، وأفتي قلبكِ في كافةِ الأمورِ؛ فالقواعدُ وُجِدَتْ لِتُسَهِّلَ أساليبَ
العيشِ وتزِيلَ الصّعابَ من الممرّاتِ والأشواقِ من النفوسِ واستبدالها
بالزّهورِ والورودِ والنّباتاتِ الضّويّةِ.

مُحَسّناتُ لَفْظيّةٍ وملائكيّةٍ تُضفي على الإنسانِ روحَ الفضيلةِ
وتُنثِرُ في رُبوعِهِ الأخلاقَ والمبادئَ والأصولَ الآدميّةِ وليستُ
الشّيطانيّةُ التي نَظَمَتْها أيادي الجُهلاءِ وعمَمَتْها سيوفُ فوقِ رقابِ
العبادِ. هل تذكرين حكايةَ الطّفلةِ التي نالتَ جائزةَ القراءةِ في دُبي؟

وكيف كان رَدُّها على الإعلاميِّ؟ وكم هي صغيرةٌ بعدد سنين حياتِها
وكبيرةٌ في لغتها وثقافتِها وقُدْرَتِها على استيعابِ الأمورِ كافةً ومنطقِها
السَّليْمِ وإبداعِها وجمالِها وحسُنِ حضورِها؟! من هنا تَبْدَأُ رحلةُ الألفِ لا
بل المليونِ ميلاً وأكثرَ لِنَنجِزَ مَهْمَتَنَا، ونَصِلَ إلى جيلٍ مُحِبِّ لِلغَةِ
العربيَّةِ. تلكَ الطِّفْلَةُ قرأتْ من الكُتُبِ الكثيرَ وليستْ قراءةً وحسب، بل
لَحِصَتِ الكُتُبَ التي قرأتْها ووضَعَتْ ملاحظَاتِها، وعندما ظَهَرَتِ النَّتِيجَةُ
لم تتأثَّرْ؛ فهي على ثقةٍ تامَّةٍ بفوزِها ومع ذلك قالتْ: " يهْمُنِي ما أنا
عليه ولستُ معنيَّةٌ بالدرجةِ ولا بالهديةِ كلِّ الأمرِ أنِّي قارئةٌ عربيَّةٌ!
والشُّكْرُ لله في عظيمِ خُلُقِهِ وتنزِيلِهِ الكريمِ بلغةٍ بليغةٍ وفصيحةٍ، باختصارٍ
هي البيانُ والسَّحرُ!.

همساتي، يا حبيبتِي الغالية، صِراخٌ قويٌّ ويا لؤلؤتي المنثورةُ ويا
ابنةَ الزَّمانِ المجيدِ، وكما تَعَلِّمينِ ليس كلَّ ما تقرأينه هنا بالضرورةِ،
يُلامِسُنِي شخصياً؛ فهي نَبَضَاتٌ من المُمْكِنِ أن تكونَ سالحةً ومن
المُمْكِنِ أن تكونَ لِلنَّفْسِ ولِمَتَابَعَةِ الحياةِ. من أشدِّ المشاهدِ قَسوَةً على
ذاتي والتي تَجْعَلُنِي أَشْمَرُّ من المجتمعِ الذَّكوريِّ، كما يصفونه،
وتأخُذُنِي إلى مكانٍ خارجِ الأرضِ من شدَّةِ القَهْرِ وكثرةِ الظلمِ.

عندما فَتَحْتُ البابَ، رأيتها راکعةً تستجدي، وهو يَحْمِلُ الكِرْبَاجَ
 وَيَنْزِلُ على جَسَدِهَا الرَّقِيقِ الضَّعِيفِ، يُشْبِعُهُ ضَرْبًا. وفي يَدِهِ الثَّانِيَةَ،
 يُغْلِقُ فَمَهَا كي لا تَصْرُخَ وَيُجْبِرُهَا على البُكَاءِ بِصَمْتٍ وتَحْمَلُ الوجعَ
 وَقَهَرَ الرَّجُلَ اللَّيِّمَ الَّذِي يُرَبِّونَهُ على الفوقيةِ وَيُعَلِّمُونَهُ كلَّ شيءٍ إِلَّا
 معاملةَ النِّسَاءِ. فَالتَّعَامُلُ مع النِّسَاءِ فَنُّ لا يُتَّقَنُهُ إِلَّا العالمونَ بِشؤونِ
 الإنسانيَّةِ والعارِفونَ بحدودِ اللهِ والمُتَّقِينِ وأولئكَ الَّذِينَ يَعْبُدونَ اللهَ حَقِيقَةً
 وليس تَمَثِيلًا أو مظاهرَ أو مراكزَ، وليس من أمورِ هذه الأيَّامِ. إذ أَنَّهُم
 مع الأسفِ، حَصَرُوا الدِّينَ والشَّرِيعَةَ بالفرائضِ وتَناسَوْا آيَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ
 وأقوالَ الرَّسولِ الكَرِيمِ، وَحَتَّى غَمَّ عَلَيْهِمُ أَنَّهُنَّ وصِيَّةُ الرَّسولِ وَأَنَّ الجَنَّةَ
 تحتَ أَقدامِهنَّ، وعاشوها بالأناشيدِ والأغنيَّاتِ فقط. لِقِساوَةِ ما شَعَرْتُ بهِ
 وأنا الفتاةُ الصَّغِيرَةُ، ابْتَعَدْتُ عن كلِّ الاجتماعاتِ من نساءٍ ورجالٍ...
 واتَّخَذْتُ لِنَفْسِي رُكْنًا لا يَطَّأُهُ إِلَّا قَلَمِي ودُواتِي والأوراقُ... وشَغَلْتُ نَفْسِي
 بِالكِتابَةِ؛ فَهِيَ الوَحِيدَةُ الَّتِي بِهَا أَحْيَا وَأَكُونُ امْرَأَةً عن تَصْمِيمٍ وقرارٍ وبِكلِّ
 ما لَهَا من حَقوقٍ مَهْدورَةٍ على عَنَباتِ العُلَماءِ والسَّاسَةِ، ومن واجباتٍ
 أَزْهَقَتْهَا؛ فَكَلِّمًا قَامَتْ بِهَا كَلِّمًا تَضَاعَفَتْ وازدادتِ المَهامُ وَهَكَذَا تَزْرَحُ
 المَرْأَةُ تحتَ عبءِ الحِياةِ؛ فإِما تَهْرَبُ وإِما تُواجهُ وتَصْمُدُّ وتُعانِدُ وتُبْرِرُ

غَضَبَهَا بِإِجَابِيَّةِ الْعَاقِلَاتِ؛ فَهِيَ لِلْعَاطِفَةِ نَبْعٌ وَلِلْحَنَانِ رَمَزٌ وَلِلْحَبِّ
عُنْوَانٌ.

صَدَّقْنِي يَا لَوْلَايَ الْمَكُونَةَ، وَالتِّي صَارَتِ الْيَوْمَ مَنْثُورَةً تَلْمَعُ
وَتَبْرُقُ فِي عَالِمِ النِّسَاءِ، وَلَهَا كَلِمَتُهَا وَتُنِيرُ قَنَادِيلَ اللَّيَالِي فِي الْعَمَّاتِ.
أَنْتِ الْكَنْزُ الَّذِي ادَّخَرْتَهُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْتِ التِّي سَاقَفْتِ مَعَهَا يَوْمًا مَا
لِنُخْبَرِ الْعَالِمِ أَجْمَعِ أَنَّ الْمَرْأَةَ وَحَدَّهَا هِيَ الْكُونُ وَهِيَ مِحْوَرُ الْوُجُودِ
وَلَيْسَتْ الْمَرْأَةُ التِّي تَطَالِبُ بِالسَّوَادَةِ وَلَا هِيَ التِّي تَدَّعِي الْإِضْطِهَادَ
وَتُمَارِسُ الذَّلَّ وَكُلَّ أَنْوَاعِ الْعِبُودِيَّةِ لِلذَّكْرِ وَالْعِيَاذَ بِاللَّهِ. إِنَّمَا الْمَرْأَةُ هِيَ
التِّي مِنْ الضَّعْفِ صَنَعَتِ الْقُوَّةَ، وَبَنَتِ الْعَوَائِلَ، وَعَلَّمَتِ وَرَبَّتِ الْأَجْيَالَ،
وَعَرَسَتِ الْفَضَائِلَ فِي الْأَنْفُسِ، وَصَوَّبَتِ الْمِقْوَدَ نَحْوَ الْإِسْتِقَامَةِ،
وَسَاعَدَتِ الْأَبْنَاءَ عَلَى تَخْطِي الصَّعَابِ، وَلَقَّنَتْهُمْ السَّرَّ فِي التَّعَامُلِ مَعَ
أُمُورِ الدُّنْيَا بَرَضِي وَثَبَاتِي، وَفِي اسْتِبْدَالِ الْحُزْنِ بِالتَّهَجُّدِ وَالْأَسَى،
وَبِالْأَمَلِ وَالبِكَاةِ بِالْعَمَلِ... تِلْكَ هِيَ الْمَرْأَةُ التِّي لَا يُشْبِهُهَا جَمَالٌ وَلَا
سِحْرٌ وَلَا إِنْسَانٌ؛ هِيَ حَوَاءُ، أَخْتِ الرِّجَالِ، مَعَهَا الْعَالَمُ يَكْتُمِلُ وَالحَيَاةُ
تَكُونُ عَلَى مَا يِرَامُ.

يا لؤلؤتي، الله الخالق للوجود، جعلنا محور الكون وكرمنا وتأتي
كرامات العبادات واللفات ومدعو العلم ومُنْتَصِفُو الحِكمة لِتَجْعَلَ منها
كائنًا وَمَنْقُوصًا وَمُلْحَقًا لِلرَّجْلِ، مع أَنَّها هي الأساس! المرأة التي نريدُ
أن تكونَ اليومَ لا تُشْبِهُ ملكاتِ الجمالِ ولا مذيعاتِ التفاهاتِ ولا
عارضاتِ الأزياءِ...

المرأة التي يجبُ أن تكونَ، هي التي مضمونها بناءً ومحبةً، ولو
كانتُ هي الحُسْنُ والجمالُ ولا يَنْقُصُها عقلٌ أو دينٌ يا أنصافَ الرجالِ.
وكلمتي لِلذَّكُورِيِّينَ من الرجالِ والنساءِ، الحَلُّ يَكْمُنُ في عِلْمِكَ وخِبْرَتِكَ
ومعها عَطْفِكَ وَحَنَانِكَ وليس بِجَعْلِكَ داعِشِيَّةً أو من الغواني؛ فالتَطَرُّفُ
لا يَمُتُ إِلَيْكَ لا بِصِلَةٍ ولا بِقَرَابَةٍ، أنتِ يا سيدةَ الكونِ صمامُ الأمانِ
للوجودِ. وأنتِ شمسُ الكونِ، تُثِيرِينَ القُلُوبَ وتَبْنِينَ العُقُولَ؛ فلا تتنازلي
عن هذا الحَقِّ الَّذِي هو هبةٌ لَكَ من الله، لَكَ وَحْدَكَ ولا يُشَارِكُكَ به
مَخْلُوقٌ. حتَّى لو جَاوَرَ الرُّوحَ أو عاشَ قُرْبَ القلوبِ...

صِدْقًا يا حبيبتي، يا لؤلؤتي ويا ابنتي الجميلةَ ويا ابنةَ الزَّمانِ،
لَسْتُ من هؤلاءِ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بانتقاصٍ أو إحباطٍ. كلِّمًا تَمَعَّنْتُ بتفسيرِ

القرآن كلما ازددتُ قناعةً بأنَّ رجالَ الدِّينِ مُقَصِّرُونَ وحاجزو الاجتهادِ
ويُفْتونَ وَفَقَ ضيقِ نُفوسِهِم وَعُقُولِهِم وبحسبِ أهوائِهِم إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي .
يدعون أن كلَّ شيءٍ حرامٌ، نَفَرُوا المسلمِينَ من دينِهِم فبِتنا من
الانحدارِ قابِ قوسينِ وفي الانحلالِ تائهون . وأكثرُ الأمورِ خطورةً
تَهميشُ لغةِ القرآنِ والتي هي عَظيمةٌ وإنِّي أَجْزُمُ أَنَّها لغةُ الحياةِ
بشموليتها وليس حصرًا بالدنيا تَتَخَطَّى المَكانَ والزَّمانَ . لغننا التي
جَعَلناها مَصَدْرًا لِجَبَلِنَا من حالِنَا؛ فبتنا نَتَشَدَّقُ بِكَلِّ اللِّغَاتِ وَنَكْتُبُ حَتَّى
بالحروفِ اللَّاتينيةِ والكرشونيةِ وَنَبْتَعُدُ عن أبجديتنا كما ابتعدنا عن ربِّنا .
وحَتَّى لا نُثْقِلُ وَفَتَ الرَّاحَةِ لَدَيْكَ بِكلماتي الكَبيرةِ المعاني، سوفَ أخطُ
لكِ أوراقِي الخريفيةَ تعيشين فيها بعيدًا عن العَمَلِ وتسرحين بجمالِ
الصُّورِ وتَدْخُلِينَ معي بجدالِ آخِرِهِ ابتسامَةً عريضةً وحُلْمَ عَظِيمٍ وَغَفْوَةً
ملائكيةً .

حُرُوفِي، تارةً، تَأْخُذُنِي إلى اللُّونِ الأَبْيَضِ وتاراتِ إلى اللُّونِ
الأَسْوَدِ مُسْتَفِيدَةً مِنْ وَضْحِ النَّهَارِ وَسُطُوعِ الشَّمْسِ وَمِنْ عَنَمَةِ اللَّيْلِ
وحلِكةِ الظُّلَامِ... وَأَحْيَانًا تَأْخُذُنِي إلى الطَّيْفِ بِاللُّونِ المُخْتَلِفَةِ مُسْتَمِدَّةً
مِنَ الزُّهُورِ تَأَلَّقَهَا وَتَتَوَعَّهَا وَجَمَالَهَا؛ فَيَتَّارِجُ إِلْهَامِي فِي الفِضَاءِ عُلُوًّا

وَإِنْخِفَاصًا، كَأَنِّي كَوَكَّبٌ يَبْحَثُ عَن رُكْنٍ لَهُ فِي الْمَدَى... وَلَا يَلْزُمُنِي
سِوَى حَوَاسٍ لَا تُشْبِهُ الْحَوَاسَ، يَلْزُمُنِي عُيُونٌ وَأَذَانٌ وَمَشَاعِرٌ لِلنُّفُوسِ
كَي تَنْتَرِجِمَ نَبَضَاتِ قَلَمِي وَكَي تُحَدِّثَ عَن أَحْوَالِي...

مِنْ صَمْتِ الْمَلَائِكَةِ أَسْتَعِيرُ حَرَكَاتِي وَسُكُونِي، وَمِنْ حِكْمَةِ
الْأَتْقِيَاءِ أَتَشْتَقُّ شُجُونِي وَمِنْ بَرَاءَةِ الْأَطْفَالِ أَسْتَمِدُّ رَوْعَةَ أَحَاسِيْسِي...

حُرُوفِي وَطَنِي وَجَنَّةُ أَحْلَامِي. أَمْتَطِي قَلَمًا سَاحِرًا وَأَنْتَقِلُ بَيْنَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَفِي مَدَادِ الْكُونِ الْفَسِيحِ، لَا يَلْزُمُنِي عِدَّةٌ أَوْ نَقْوَدٌ أَوْ
كَنْوَزٌ؛ يَكْفِينِي نَسِيمٌ وَشَجَرٌ وَجَدُولٌ مَاءٍ وَمَعَهَا عَصَافِيرٌ تَحْلِقُ وَتَزْقِرُ
وَفِرَاشَاتٌ تَنْتَقِلُ بَيْنَ الزُّهُورِ وَنَحْلَاتٍ تَرْتَشِفُ الرِّيحَ كَي تُحَفِّزَ قَلَمِي
وَيَرْتَشِفَ مِنْ مَعِينِ الْحُبِّ وَالْحَيَاةِ الْهَامَاتِهِ وَخِيَالَاتِهِ وَإِبْدَاعَاتِهِ. وَتَسَاقُطُ
فَوْقَ سَطُورِي حُرُوفٌ تَزُوي حِكَايَاتٍ عَنِ الْمَظْلُومِينَ وَعَنِ الْعُشَاقِ وَتُنْظَمُ
أَشْعَارًا فِي الْمَدِيحِ وَالْفَخْرِ وَالرِّثَاءِ، وَلَوْ قَعَهَا دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ تُبَشِّرُ
بِحُلُولِ فَصْلِ الْإِبْدَاعِ. وَهَكَذَا تَكُونُ الْحَيَاةُ: قَلَمٌ وَفِكْرٌ وَدُوَاةٌ. هَلْ أَجْمَلُ
مِنْ حَيَاةٍ مَعَ حَبَاتٍ مَطَرٍ تُعَانِقُ أَزْهَارَ الْيَاسَمِينَ وَأُورَاقِهِ وَتَعَطِّرُ الْكَلِمَاتِ
وَتَبْعَثُ فِي الْأَجْوَاءِ السَّعَادَةَ وَالْفَرَحَ وَالْهَنَاءَ. يَا رَجَاءَ الْحَنِينِ يَا قَوَارِيرَ
الدَّكْرِياتِ، يَا حُرُوفًا غَنِيَّةً بِالمَشَاعِرِ السَّامِيَّةِ، وَمُفَعَّمَةً بِالأَحَاسِيْسِ

السَّرمديَّة، أتحفي أوراقي بأخبارِ وأحداثِ، تحظى برِضى اللُّغة العَرَبِيَّة،
وبجمالِ الفصاحةِ الأدبيَّةِ وِبِلاغةِ المعانيِ الإنسانيَّة. تفيضُ مُحَلِّتي
بأبجديةِ تُلَامِسُ الشَّمسَ وتغوصُ في الأرضِ. وحانَ وقْتُ التَّجليِ
والرَّحيلِ إلى كَوَكَبِ يجاورُ الأرضَ ويُشبهُ المَريخَ....

أيُّها الحزينُ، حلِّقْ في الفضاءِ، مُفتشاً عن الوَليفِ، ريشاتِهِ مَلونَةٌ
وعيناهُ مُكَوَّرةٌ، وفوقَ رأسِهِ تاجٌ، ومِنقارُهُ مُحدودبٌ، وتغريدهُ يُطربُ
الأصمَّ، ويُزيلُ عن النَّفسِ الألمَ، ويُرَيِّبُ الغُيومَ، ويروي ظمأَ الرُّوحِ،
ويشفي القلبَ المجروحَ، ويُزيلُ عن المريضِ الوجعَ. وعند اللِّقاءِ، يزولُ
عَنكَ الحُزنُ، وَيَنقَلِبُ إلى فرحٍ، فَتُرْفَرِقُ وتُرفِرُ وتتشدانِ معاً أغنيةَ
الحُبِّ كي يَكْتَمِلَ القَمَرُ.

تَسْكُرُ الأزهارُ مِنْ قَطراتِ الندى، وتترنَّحُ وتتمايلُ ويفوحُ عِطْرُها،
ويَمَلأُ حَفيفُها الأرجاءَ، وتَتأرجحُ الأغصانُ راويةً حكايا السَّمْرِ. بينَ
العَسَقِ والشَّقَقِ، ليلٌ بلا سَهَرٍ، وساعاتٌ مليئةٌ بالصَّجَرِ، تَمُرُّ ثَقيلةً بلا
وَجَلٍ، ولا تَحْمِلُ معها أحلامًا جميلةً، ولا تُوزَعُ كؤوسَ الماءِ والحَمْرِ
واللَّبَنِ. جماهيرُ الظَّلامِ تَتَرَبِّصُ الفَجَرَ، وتنتظرُ خيطَ الأملِ الَّذي يَفْصِلُ
الأبيضَ عن الأسودِ. واليومُ والغربانُ تَتَقَوِّعُ خائفةً مِنَ النُّورِ والمَطَرِ.

وتتهدى الملكة من وراء الجبال، شمسًا مازجةً الأصفر على الأحمر،
وتزداد حماسها فتسطعُ مشرقةً إنه الضحى: سلطان الصحو، وشاعرُ
النور وأروع الزمن.

هلمي يا مُبدعة الكلمات، رتلي آيات النهار، فالصبح يمتد من
السحر إلى أن يضح الظل على قياس الرجل وكل من يدب فوق
التراب مُنتعلاً حُفَّ الهدهد ومُعتمراً تاجه. املاي البياض بالسواد،
واهجري النقاء والصفاء، ودعي القلم يُخرشُ مجنونًا، ويصرخُ محمومًا،
من شدة الأوجاع، الوطن والناس، وجميع من يسكن القلب، ويُعشعش
في أعماق الوجدان. ربّضت الفرس تَنظُرُ فارسها، وحطَّ الهدهد فوق
غصن شجرة الحياة، وقف الخائن مُتدليًا مشنوقًا وارتاح الوطن من هذا
الوباء.

انبلج الفجر وصارت الشمس في وسط السماء. تمكّن الحرف
من التغريد فوق سطور الصباح والمساء، واشتعل الورق بالحركات.
قصص وقصائد وحكايا وأشعار وروايات، تتسابق لثباع في دواوين
وكُتُبٍ وجرائدٍ ومجلات.

سوف يكون لنا لقاء مع العشاق في الفجر ومع عساكر الظلام،
لأنه مَعْضَلَةٌ العبودية لغير الله ومُشكَلَةٌ الأصنام والأوثان. الكُفْر ليس
حِكْرًا على البَشَرِ، ولا حتَّى الإيمان؛ فالطَّيرُ والحَجْرُ منها ما هو شيطانٌ
ومنها ما هو ملائِكٌ...

السِّرُّ يَكْمُنُ في الميزانِ، مَنْ رَجَحَتْ كَفَّتُهُ صَوْبَ اليمينِ فازَ،
وَمَنْ رَجَحَتْ صَوْبَ اليسارِ رَسَبَ. يا خالقَ القَلَمِ والنَّونِ، نَجِّنا من شرِّ
الجُنونِ، واهدنا إلى خيرِ الدَّرُوبِ، الحياةُ تَلِيقُ بكلِّ قلبٍ يَنْبُضُ بمعزوفةِ
الروحِ. وَيُعَرِّدُ ألحانَ الخلودِ، ويرسِّمُ لوحاتٍ سرمديةً، ويُنظِّمُ قصائدًا
حريريةً. لا مَوْتًا يُعيقُ أفكارنا، ولا يأسًا يُحْبِطُ آمالنا، ولا أَلْمًا يَمْنَعُنا من
تحقيقِ أحلامنا، ولا تعبًا يَشُلُّ طموحاتنا.

غريبةٌ تلكَ الأقوامُ التي تَدَّعي أنها من سلالةٍ من صِنْفِ الملوكِ
والسلاطينِ وهي في الهُوةِ والمُسْتَنْقَعاتِ تحيا وتعيشُ. الفخامةُ والسعادةُ
تَلِيقُ بالبسطاءِ من الناسِ الساعينِ لِخيرِ والسائرينِ نحو الشمسِ،
مُتَسَلِّحينَ بنورها، وكاتبينَ فوقَ خيوطِها. كلماتٌ من ذَهَبٍ، تَلْمَعُ وتَبْرِقُ
وتتوهَّجُ وتُضيءُ عقولًا وتُنيرُ قلوبَ البَشَرِ.

شَتَّانَ بَيْنَ فَاقِدِ الْبَصْرِ وَبَيْنَ فَاقِدِ الْبَصِيرَةِ؛ فَالْفَرْقُ شَاسِعٌ بَيْنَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَبَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ.
مَلَكَةُ النُّورِ تُجَلِّلُ عَامَلَاتِهَا وَسُلْطَانُ الظَّلَامِ يَكْشِفُ رَوَادَهُ، النَّهَارُ
لِلْأَتْقِيَاءِ وَاللَّيْلُ لِلْكَافِرِينَ بِنِعْمَةِ الْبَصْرِ.

الحمد لله أتممت خواطر روايتي اللؤلؤ المنثور وأتطلع الى ديوان يجمع
حماستي وحكمتي قبح الدنيا وجمالها بروابط بيني وبين نعم الله من
حواس واحساس شكراً لكل من لامست كلماتي شغاف قلبه وحركت
وجدانه.

لطيفة خالد محبتي واللؤلؤ المنثور

أيلول / ٢٠١٩

الفهرس

٣	توطئة
٦	الاهداء
٧	الفصل الأول
١٥	الفصل الثاني
٢٧	الفصل الثالث
٤٥	الفصل الرابع
٥١	الفصل الخامس
٦١	الفصل السادس
٧٣	الفصل السابع
٩٧	الفصل الثامن
١١٣	الفصل التاسع
١٢٧	الفصل العاشر
١٧٧	الفصل الحادي عشر البداية النهاية